مجلة البحوث العلمية والدراسات الإسلامية | المجلد 14، العدد 4، (السداسي الثاني 2022م)، ص. 141- 194

عدد خاص بالملتقى الدولي
(العلوم الإسلامية من الرصيد التاريخي إلى التفعيل الحضاري)

الرصيد الكلامي التاريخي وحسن توظيفه والاستفادة منه في عملية التفعيل الحضاري المعاصر
The Islamic theology asset, and best using him in the civilized activation

أ.د. عبد الرزاق دحمون*

جامعة الجزائر، كلية العلوم الإسلامية، مخبر الشريعة (الجزائر)

a.dahmoun@univ-alger.dz

تاريخ الاستلام: 2022/10/14 تاريخ القبول: 2022/10/16 تاريخ النشر: 2022/11/30

ملخص:

تعرف حياتنا المعاصرة في بلادنا العربية والاسلامية، انقلابا حقيقيا وجذريا في شتى المجالات، بسبب ما تعرفه البشرية من تطور علمي وتقني (تكنلوجي) متسارع ورهيب، على المستويات، السياسية، والاقتصادية، والفكرية والثقافية، والعلمية وغيرها، وهذا التطور يسير باتجاهين مختلفين، احدهما مفيد والثاني مهلك. المفيد منه، هو كلُّ ما يرتكزُّ على مبادئ العلوم و مناهجها و آلياتها، والعمل على الوصول الى تحقيقِ أهدافِها وغاياتها التّي قامت عليها، تسهيلاً لحياة الإنسان على الأرض، مصداقاً لحكمة الخَلق، التي أشار إليها ربُّنا عزّ وجلَّ بقوله: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ [الذّاريات: 56] بينما الثاني يستعين بهذا التَّطوُّر لإفساد حياة الإنسان، وإنزاله إلى مستوى البهيمية الحيوانية، خاصة إذا عرفنا أنَّ أعداءَ الإسلام يتَّخذون من الغزو الفكري، أداةً هدَّامة و معوّلا محطِّماً، بحكم امتلاكهم لهذا التَّطوُّر العلمي والتقدُّم فيه على غيرهم. ويضاف إليه ابتعادُ شعوبنا العربية الإسلامية في بعض الأحيان عن منهج الله تعالى وطريقه المستقيم، وهو ما يشكِّل تحدّيًا حقيقيًا لاستقرار بلداننا، وخطرًا مدمّرًا مستقبلاً، وزحفًا رهيباً عبى تقاليدنا ومقومات ديننا، إن لم يتداركنا الله تعالى برحمته، وهذا المكر الإبليسي يتعاظم ويتنامى يوماً بعد يومٍ، مصداقا لقوله تعالى: ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ [الأنفال: 30] ويزعم عدد معتبر من الناس، ممن تنتمي إلى أهل العلم وغيرهم، أنَّ علم الكلام علمٌ غير نافعٍ، وأنَّ هذا العلم غير مفيدٍ في زماننا تَدْرِيسُهُ، وأنَّ علماء الكلام أبْعَدُ عن معرفة الواقع الذي يعيشه الناس، بَلْ غَلَ بعضُهم، حتَّى ذكر أنهم لم يكنْ لهم دور ايجابي في نشر الإسلام وبيان حقائقه، بناءً على أنَّ أدلَّتَهُم المستخدمة في مجالسهم العلمية تَؤُول الى التجريد، وتبتعدُ كثيرًا عن واقع حياة الناس، فهل هذا الزعم صحيح؟ أم أنَّه مغالطة من مغالطات خصومهم؟

* المؤلف المرسل.

الكلمات المفتاحية: الرصيد الكلامي التاريخي، التفعيل الحضاري.

Abstract:

The topic of my research falls within the context of preserving our civilizational heritage (scientific, cultural and intellectual), which was built by our honorable scholars, in response to the attempts of the enemies of Islam to weaken our Arab and Islamic world by various approaches and means, and to spread their ideas among the members of our societies, with the dangerous philosophies they created on the intellectual level, such as modernity and secularism. Permissiveness, nihilism, and others, in addition to what the great powers aim at the political and economic levels, such as global Zionism, and attempts to Christianize and Judaize.

Research problem:

Some people, who belong to the scholars and others, claim that the science of speech is a useless science, and that it is not useful to teach it in our time, and that the scholars of speech are far from knowing the reality in which people live. Its facts, based on the fact that their evidence used in their scientific councils leads to abstraction and is far removed from the reality of people's lives. Is this claim true?, Or is it a fallacy of their opponents?, especially those who belong to the so-called transitional school as opposed to the rational school - as some like to call it - if this expression is correct.

basing on this, On this basis, some questions related to this science branched out from this problem, and how do we benefit from it in our time, by benefiting from the skills of analysis and discussion of issues? and the method of argumentation and criticism of opponents' arguments with the logic of reason and transmission, and activating that in our living reality.

The motives for choosing this topic are many, including : an attempt to activate the life of a Muslim in our time to master this science and to employ those skills for our scholars in line with the very accelerated scientific and technological developments of our time; Among those methods: their accuracy in proving the prophethood of the Prophet and responding at the same time to the enemies of Islam who challenge it, inside or outside the Arab and Islamic countries.

As well as the subject of the Imamate, and how to benefit from it in responding to the way the affairs of government are conducted in our contemporary time, and other important issues related to public affairs; This importance was mentioned by Imam Shihab al-Din al-Qarafi in his book al-Dakhira: «I saw an answer to Abu Hanifa in words, with which Malik wrote to him that you are talking about the fundamentals of religion, and that the predecessors were not talking about it; He replied: The predecessors - may God be pleased with them - were not innovations that appeared in their time, so moving the answer to them was an invitation to show what is a great evil pursuit, so it was left; And in our time heresies appeared, so if we were silent, we would have decided the heresies, so the situation parted.

Keywords: The Islamic theology asset; civilized activation.

مقدِّمة:

تَعْرِفُ حيَاتُنا المعاصرةُ في بلادنا العربية والإسلامية، انقلابًا حقيقيًّا وجذريًّا في شتَّى المجالات، بسبب ما تعرفه البشرية من تطوُّرٍ علميٍّ وتِقْنِيٍّ (تكنولوجي) متسارعٍ ورهيبٍ، على كلِّ المستويات، السياسية، والاقتصادية، والفكرية والثقافية، والعلمية وغيرها، وهذا التطور يسير باتجاهين مختلفين، أحدهما مفيدٌ، والثاني مُهْلِكٌ.

فالمفيد منه، هو كلُّ ما يرتكزُ على مبادئِ العلومِ ومناهجها وآلِيَاتِها، والعملِ على الوصول إلى تحقيق أهدافها وغاياتها التي قامت عليها، تسهيلًا لحياة الإنسان على الأرض، مصداقًا لحكمة الخَلْق، التي أشار إليها ربُّنَا عزَّ وجلَّ بقوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾[الذاريات: 56] بينما الثاني يستعين بهذا التطوُّر لإفساد حياة الإنسان، وإنزاله إلى مستوى البهيمية الحيوانية، خاصة إذا عرفنا أنَّ أعداءَ الإسلام يتَّخذون من الغزو الفكري، أداة هدَّامة ومعولًا محطِّمًا، بحكم امتلاكهم لهذا التطور العلمي والتقدم فيه على غيرهم.

ويُضَافُ إليه ابتعادُ شعوبنا العربية والإسلامية في بعض الأحيان عن منهج الله تعالى وطريقه المستقيم، وهو ما يشكل تحدِّيًّا حقيقيًّا لاستقرار بلداننا، وخطرًا مُدَمِّرًا مستقبلًا، وزحفًا رهيبًا على تقاليدنا ومقومات ديننا، إن لم يتداركنا الله تعالى برحمته، وهذا المكر الإبليسي يتعاظم ويتنامى يومًا بعد يومٍ، مصداقا لقوله تعالى: ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الأنفال:30] .

إنَّ هذا الخطر يشير إليه الباحث السعودي عبد الله بن عبد الرحمن الجربوع، بقوله: « وكان من أبرز آثاره: « تحطيمُ مِظَلَّةِ الأعراف الأخلاقية في المجتمعات الإسلامية، فانطلقت تَسْرِي في أو صالها كلُّ مُوبِقَاتِ الحضارة الأوربية، حتى وصلت في ظلِّ الاحتلال إلى مرحلة الشيوع والظهور، ثُمَّ إلى مرتبة الاستقرار والاستحسان، ثم درجة الشرعية[1] التي تحميها القوانين الوافدة وتدرّج بالمغلوبين الانحلال، بداية بالسلوك الفردي فالانحراف الجماعي عن نهج الدين، واستهوت مظاهر الحياة الغربية الناس، فأقبل كثير منهم على الخمور والفجور، والقمار والربا، ونحو ذلك،

[1] (الشرعية): صفة تطلق على الأمر المتَّفِق مع الشرع، والشريعةُ الحقُّ هي: شريعة الله، إلَّا أنَّه غَلَبَ إطلاقُها على كلِّ أمرٍ أو قرارٍ يتَّفِقُ مع القوانين السائدة المعتبرة في بلادٍ ما، فيكون شرعياً إذا وافقها، وغير شرعي إذا خالفها، ثم أطلق اصطلاح (الشرعية الدولية)، ويراد به: الأمور والقرارات الصادر عن هيئة الأمم المتحدة؛ إلا أنه لا يجوز للمسلم وصف قرار بأنه شرعي إلا إذا كان متفقاً مع الشرع الإلهي المطهَّر، أمَّا ما شرعته القوانين الوضعية، فهو وضعيٌّ باطلٌ، ولو سُمِّيَ شرعيًّا، فالمسلمُ لا يرى شرعيًّا إلا ما شرعه اللهُ وأقرَّه؛ والله أعلم؛ ينظر: أثر الإيمان في تحصين الأمة الإسلامية ضد الأفكار الهدامة، لـ: عبد الله بن عبد الرحمن الجربوع، الناشر: عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، (1423هـ/ 2003م)، عدد الأجزاء: (2) (1/172).

ثم دَبَّ دَبِيبُ التَّهَاوُنِ في الدين، فتناول العبادات والعقائد وغيرها، فتكاسل الناس عن أداء العبادات، وانتشر في الجو ضروب من الفلسفة، والمذاهب الضالَّة، واستمالت الشباب وغير الشباب، وصارت العلاقات الجنسية والنزعة الإباحية الشغل الشاغل للسينما، وكثير من المجلات والصحف.. فانحرف الشباب وفسدت روابط الأسرة[1]، إلا من رحم الله »[2].

موضوع البحث وعنْوَانُه وأهمِّيَتُه:

لا شكّ أنَّ موضوع بحثي يصبّ في سياق المحافظة على موروثنا العلمي والثقافي والفكري الذي بَنَاهُ علماؤنا الأفاضلُ، ذلك أنَّ أعداءَ الإسلام، في الداخل والخارج، يعملون على إضعاف عالمنا العربي والإسلامي بشتَّى الوسائل والمناهج، لِيَسْهُلَ عليهم نَشْرُ أفكارِهِم الهدَّامة في أبنائه، وخصوصا الناشئة منهم، فهم يَسْعَوْنَ للسيطرة على العالم، بما أحْدَثُوهُ من فلسفاتٍ وأفكارٍ خطيرةٍ، كـ: (الحداثة) و(العلمانية) و(الإباحية)، على المستوى الفكري؛ فضلًا عمَّا تهدف إليه تلك الدول الكبرى المعادية لعالمنا العربي والإسلامي، على المستوى السياسي والاقتصادي، كـ: (الصهيونية العالمية) التي تخطط لإقامة الدولة اليهودية الكبرى، والمنصِّرين بالتثليث، وتأليه البشر، والكفر بالله، فقد اتَّخَذُوا من القنوات العالمية، وشبكات الإنترنت وعقد المؤتمرات العالمية المشبوهة لدراسة كيفية الاستفادة من ذلك البَثِّ المباشر في (التهويد) و(التنصير) و(التمجيس) و(التغريب)، كما استعانوا بكلّ الوسائل والطُّرُقِ العلمية المعاصرة للدعوة إلى الإباحية ونشر الفواحش والرذائل، بين الرجال والنساء، وخاصة بين الشباب والشابات[3]. وإدراكًا منِّي لخطورة الأمر، وتَعَقُّدِ الأشياء وتداخلها، بما يحدث محليًّا وإقليميًّا ودوليًّا، رأيتُ أنْ أشارك في ملتقاكم العلمي المبارك، المزمع انعقاده ـ إن شاء الله تعالى ـ وبفضله وكرمه وجوده، وعَنْوَنْتُهُ بـ: (الرصيد الكلامي التاريخي وحسن توظيفه والاستفادة منه في عملية التفعيل الحضاري المعاصر).

إشكالية موضوع البحث:

يزعم عدد معتبر من الناس، ممن تنتمي إلى أهل العلم وغيرهم، أنَّ عِلْمَ الكلام علمٌ غيرُ نافعٍ، وأنَّ هذا العلم غيرُ مفيدٍ في زماننا تَدْرِيسُهُ، وأنَّ عُلَمَاءَ الكلام أبْعَدُ عن معرفة الواقع الذي يعيشه الناس، بَلْ غَالَ بعضهُم، حتَّى ذكر أنَّهم لَمْ يكنْ لهم دَوْرٌ إيجابيٌّ في نشر الإسلام وبيان حقائقه، بناءً على أنَّ أدلَّتَهُم المستخدمة في مجالسهم العلمية تَؤُولُ إلى التجريد، وتبتعدُ كثيرًا عن واقع حياة الناس؛ فهل هذا الزعم صحيح؟، أم أنَّه مغالطة من مغالطات خصومهم؟،

---

[1] ينظر: حاضر العالم الإسلامي وقضاياه المعاصرة، لـ: علي جريشه، ومحمود محمد سالم، الناشر: مطابع الدجوي، القاهرة ـ عابدين، مصر، دون تاريخ الطبعة، عدد الأجزاء: (1)، (ص/165).

[2] ينظر: أثر الإيمان في تحصين الأمة الإسلامية ضد الأفكار الهدامة، لـ: عبد الله بن عبد الرحمن الجربوع، (172/1).

[3] ينظر: أثر الإيمان في تحصين الأمة الإسلامية ضد الأفكار الهدامة، لـ: عبد الله بن عبد الرحمن الجربوع، (171/1).

خاصة ممن ينتمي إلى ما يسمى بالمدرسة النقلية في مقابل المدرسة العقلية ـ كما يحلو للبعض إطلاقه ـ، هذا إنْ صحَّ هذا التعبير.

وعلى هذا الأساس، فقد تفرَّعت عن هذه الإشكالية بعض التساؤلات المتعلقة بهذا العلم، وهي: ما حقيقة هذا العلم، وما هو سبب تسميته، وما هي موضوعاته، وحدُّه...، إلخ.

وكيف يمكننا نحن المسلمون الاستفادة من موروثنا التاريخي، خصوصا في علم الكلام، والاستفادة من قَالَبِهِ المتعلِّق بمناقشة القضايا والمسائل، لإحداث تغييرٍ جذريٍّ وإيجابيٍّ على كلِّ المستويات، هذا ما أرجو الوصول إليه من خلال هذه الورقات المقدَّمة في هذا البحث.

الدراسات السابقة عن الموضوع:

لم أقف على موضوعٍ بَحْثٍ بهذا العنوان، غير أنَّني وَقَفْتُ على حقيقةِ تقدير جُهْدِ المتكلمين وما قدموه للأمَّة، وهو ما يشير إليه الدكتور طه عبد الرحمن في كتابه (في أصول الحوار وتجديد علم الكلام)، قد سبقني للإشارة إلى هذه الفكرة، حيث وقف موقف الحياد من المنكرين لجهدهم وبين المغالين، فقال: « وإنَّما نَنْظُرُ فيما أصابوا فيه، حتَّى يتسنَّى لَنَا الاستفادة منه في تقدير الطاقة الإبداعية في إنتاجهم »[1].

وهذه الاستفادة يرجع سببها إلى ضبطهم المناهج العقلية، وأخذهم بالقويم من الأدلة المنطقية، لأنَّهم استوعبوا استيعابًا منهجيًّا كاملًا مختلف أسباب عصرهم العلمية والتاريخية من وسائل نظرية وأوضاع ظرفية، وانتهاجهم الطرق الاستدلالية في أبحاثهم التي تتميَّزُ بالدِّقَّة والتجريد، والطرافة والعُمْقِ في التحليلات[2].

ويتقوَّى هذا الموقف في زماننا هذا، لِابْتِنَائِه على إثبات دور المتكلمين في مواجهة التيارات الاعتقادية، خاصة غير الإسلامية منها.

سبب اختياري لعنوان البحث وموضوعه:

عندما يحرِّرُ أيّ باحثٍ مَقَالًا أو يصنِّفُ كتابًا أو يدرس قضية ما، فإنَّه ينطلق في ذلك من أسباب ذاتية وموضوعية، هي التي تدفعه في معالجة مشكلته التي تعترضه، وتبعا لذلك كان اختياري لموضوع بحثي:

أ) ـ فقد انعقد اختياري على علم الكلام، أو كما يسميه البعض بـ(علم أصول الدين)، ودوره في تفعيل حياة المسلم في عصرنا، حتى تقوم حياته على أساس متين، يراعي التطور العلمي والتقني (التكنولوجي) المتسارع بشكل عجيب.

---

[1] في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، د. طه عبد الرحمن، الناشر: المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء- المغرب، ط.3، (2007م)، (ص/71).

[2] المرجع نفسه، (ص/72).

ب) ـ حُبِّي لهذا العلم، وتفرّغي له سنوات طويلة، تَعَلُّمًا ومطالعةً، وتدريسًا له وتحقيقًا.

ج) ـ رَدًّا على كثرة حَمَلَاتِ التَّشْوِيهِ التي طالت أحكام ديننا ونبينا عليه الصلاة والسلام، وموروثنا العلمي والثقافي والحضاري، خصوصا ما يتعلق بما أنتجه العقل العربي المسلم عبر العصور.

خطة البحث المعتمدة:

اتبعت في تقسيم خطة البحث خطة علمية مضبوطة ـ حسب اجتهادي وتقييمي لمسائله ـ، حيث قسَّمْتُه إلى:

ـ **مقِّدمة**، ذكرت فيها عنوان البحث، وأهميته وإشكاليته، وسبب تسميته، والغرض منه، وبيان الدراسات السابقة عليه، وأسباب اختياري له، والخطة المتَّبعة لكتابته.

ثمَّ ركزت كلامي في **المبحث الأول** للحديث عن ضبط مصطلحات عنوان البحث، تمهيدا لفهمه، وإدراك مراميه، حيث أوردت معاني مفرداته في اللغة والاصطلاح، بناءً على قاعدة (الحكم على الشيء فرعٌ عن تصوُّرِه)، وتَبَعًا لذلك أرْدَفْتُهُ ببيان معنى لفظة (الاستفادة) في اللغة والاصطلاح، وكذا لفظة (الرصيد) وتطوُّرِها زمنيًّا، ثمَّ لفظة (التفعيل) و(التوظيف) و(الخبرة)، وهكذا معنى لفظة (الاستفادة) و(الحضارة) و(المعاصر) في اللغة والاصطلاح، ثم بيان المعنى العامّ لعنوان البحث والغرض منه.

وأمَّا **المبحث الثاني:** فخَصَّصْتُه للحديث عن علم الكلام، أو كما يسميه الكثير بـ(علم التوحيد) أو (علم أصول الدين)، وأهمّيَّتِه في حياة المسلم، فبَيَّنْتُ فائدة علم الكلام، وضرورة معرفة موضوعه ومعرفة مسائله، وبيان حَدِّه وفوائد علم الكلام، ووجوب المعرفة، لأنها حاصلة بالنظر في هذا العلم، وأنَّ موضوعاته تَعُمُّ الزَّمانَ والمكانَ، مع الإشارة في الوقت نفسه إلى قيام هذا العلم المفيد على حرية التفكير، فهي من أهمّ الأسباب التي تُنْبِئُنَا على تَفَوُّقِ حضارتنا الإسلامية على غيرها من الحضارات.

وأمَّا **المبحث الثالث**، فقد أفْرَدْتُهُ لتوضيح مسألة علم الكلام وعلاقته بعملية التفعيل الحضاري المعاصر، حيث وضَّحْتُ أهَمَّ أسباب التفعيل الحضاري عند علمائنا الأوائل، وتركيز علماء الكلام على الجانب التوحيدي في مصنفاتهم، وبيان دورهم في تفعيل العلوم بشتى أنواعها، وأنَّ علم الكلام له دور هامّ جِدًّا في اكتساب المعارف، وانتقلت إلى الحديث عن مسألة توحيد الله تعالى، وأنَّها المنطلق الحقيقي في عملية التفعيل الحضاري المنشود.

وركَّزْتُ حديثي في **المبحث الرابع** لِشَرْحِ وسائل أعداء الإسلام في تخريب العالم العربي والإسلامي، إدراكًا منِّي لخطورتها، لأنها سببٌ قويٌّ في عرقلة محاولات النهوض بأمتنا ونشر حضارتنا وبيان فضلها ورحمتها على البشرية، فتكلَّمْتُ عن فكرة (التغريب) و(التهويد) و(التنصير) و(التمجيس) و(التجهيل) و(التخنيث والاسترجال) و(التَّجْرِيءُ على انتهاك أحكام الشرع ومخالفة القوانين السارية) و(افتعال النزاعات المذهبية والعرقية المقيتة) و(افتعال الحروب العسكرية والأزمات البيئية وغيرها).

وجعلت **المبحث الخامس** والأخير، خاصًّا بِعَرْضِ جانبٍ عمليٍّ تطبيقيٍّ لِبيان دَوْرِ علماء الكلام في عملية التفعيل الحضاري المعاصر، حيث اخترت قضية تنظيرهم للحكم الراشد، من خلال بعض النصوص المنقولة عن بعض علمائنا رحمهم الله تعالى.

وفي الأخير، ختمت بحثي ببيان بعض أهمّ النتائج المتوصل إليها، وما يتبعها من توصيات هامة تثري هذا المتلقى العلمي الدولي، لعلها تكون نبراسا لمن يكتب في هذا الشأن، أو مَن يَهُمُّهُ الأمرُ، مِن وُلَّاةِ أمورنا وعلمائنا الكرام، وطلبة العلم الأفاضل، والحمد لله ربّ العالمين، وبه أستعين؛ وتفصيل مسائل هذا البحث يكون في المباحث الخمس الآتية، وهي:

.

المبحث الأول: ضبط معاني مصطلحات عنوان البحث:

إنَّ تحديد مفهوم مصطلحات عنوان البحث أمرٌ ضروريٌّ للوقوف على الهدف منه، ومعرفة بعض فوائده وثماره، لهذا بدأتُ بضبطها من حيثُ وُرُودُهَا في بعض أهمِّ مصادر اللغة والاصطلاح المعتمدة في هذا الشأن، ومن ثم الولوج إلى مفاصل البحث ومكامنه الأساسية، ويمكنني عرضها بالشكل الآتي:

أوَّلًا ـ تعريف لفظة (الاستفادة) في اللغة والاصطلاح:

(الاستفادة) لغة: طلب النفع والمنفعة في كلِّ شيءٍ، مأخوذةٌ من قولك: (استفادَ الرجل من أخيه مالًا، أو علمًا، أو نحوَهما، يستفيد، استفادةً، فهو مُستفيد)، والمفعول (مُستفاد): إذا اكتسبه، وانتفع به، و(استفاد الكثيرَ من المعلومات من قراءة هذا الكتاب): إذا انتفع بما فيه من حِكَمٍ وأسرار وفوائد، و(استفاد منه): جنى منه نفعًا، وحصل منه على فائدة، و(استفاد من مواهبه): استغلّها لصالحه[1].

وأما اصطلاحا: فهي: « طَلَبُ الإنسانِ ما فيه نَفْعُهُ في دينِه ودُنْيَاهُ »[2]، بمعنى: تلك الزيادةُ التي تحصلُ للإنسان في كلِّ شيءٍ، من عِلْمٍ، أو أَدَبٍ، أو مَالٍ، ذهبًا كان أو فضة، أو غيرهما، مما هو مُتَقَوَّمٌ وذُو قيمةٍ في حياة الإنسان.

ثانيا ـ تعريف لفظة (الرصيد) في اللغة والاصطلاح:

(الرصيد) لغة: مأخوذ من (الرَّصَد)، وهو: التَّهَيُّؤُ لِرُقْبَةِ شَيْءٍ على مَسْلَكِهِ، ثمَّ يُحْمَلُ عليه مَا يُشَاكِلُهُ، فحرف (الراء) و(الصاد) و(الدال) أصلٌ واحدٌ؛ فيقال: (أرصدت له كذا)، أيْ: هَيَّأْتُهُ له وأُعِدُّهُ له، كأنَّك جَعَلْتَهُ على مرصده؛ وفي الحديث: « ... **إِلَّا أَنْ أَرْصُدَهُ لِدَيْنٍ عَلَيَّ** »[3]، وقوله عليه السلام أيضا: « **فَأَرْصَدَ اللهُ عَلَى مَدْرَجَتِهِ مَلَكًا** »[4]، أيْ: وَكَّلَهُ بحفظها،

---

[1] ينظر: المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، أبي العباس أحمد بن محمد بن علي الفيومي الحموي، المتوفى نحو (770 ه)، المكتبة العلمية ـ بيروت، عدد الأجزاء: (2)، في مجلد واحد وترقيم مسلسل واحد، (د. ت. ط)، (485/2)؛ معجم اللغة العربية المعاصرة، لـ: أحمد مختار عبد الحميد عمر، (ت.1424ه) بمساعدة فريق عمل، عالم الكتب، ط.1، (1429ه ـ2008م)، عدد الأجزاء: (4)، (1758/3)، برقم: (3906).

[2] هذا التعريف الاصطلاحي لم أقف عليه في كتاب معيَّنٍ، وإنَّما وضعته حسب اجتهادي في الفَهْمِ، والله أعلم بالصواب.

[3] جزء من حديث صحيح، أخرجه مسلم في: صحيحه ـ كتاب الزكاة، باب: تغليظ عقوبة من لا يؤدي الزكاة، (687/2)، برقم: (991)، عن أبي هريرة ـ ﷺ ـ؛ ولفظه عنه بتمامه: « أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: « **مَا يَسُرُّنِي أَنَّ لِي أُحُدًا ذَهَبًا، تَأْتِي عَلَيَّ ثَالِثَةٌ وَعِنْدِي مِنْهُ دِينَارٌ، إِلَّا دِينَارٌ أَرْصُدُهُ لِدَيْنٍ عَلَيَّ** ».

[4] هو جزء من حديث صحيح، أخرجه مسلم في: صحيحه ـ كتاب البر والصلة والآداب، باب: في فضل الحبّ في الله، (1988/4)، برقم: (2567)، ؛ ولفظه عنده بتمامه: « عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: « **أَنَّ رَجُلًا زَارَ أَخًا لَهُ فِي قَرْيَةٍ أُخْرَى، فَأَرْصَدَ اللهُ لَهُ، عَلَى مَدْرَجَتِهِ، مَلَكًا فَلَمَّا أَتَى عَلَيْهِ، قَالَ: أَيْنَ تُرِيدُ؟ قَالَ: أُرِيدُ أَخًا لِي فِي هَذِهِ الْقَرْيَةِ، قَالَ: هَلْ لَكَ عَلَيْهِ مِنْ نِعْمَةٍ تَرُبُّهَا؟، قَالَ: لَا. غَيْرَ أَنِّي أَحْبَبْتُهُ فِي اللهِ عَزَّوَجَلَّ، قَالَ: فَإِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكَ، بِأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَبَّكَ كَمَا أَحْبَبْتَهُ فِيهِ** ».

وقال الكسائي: (رَصَدْتُهُ، أَرْصُدُهُ)، أيْ: تَرَقَّبْتُهُ؛ و(أَرْصَدْتُ له)، أي أعْدَدْتُ؛ و(راصده): راقبه؛ و(ترصد له): قعد له على طريقه؛ و(المرصد): مَوْقِعُ ومَوْضِعُ الرَّصْد؛ و(قعد له بالمرصد، والمرتصد، والرصد، كالمرصاد)؛ و(الرُّصَّدُ): القومُ يَرْصُدُونَ؛ و(الرصد) الفعل؛ و(الرُّصُودُ من الإبل): التي ترصد شُرْبَ الإبل، ثم تشرب هي؛ ويقال (الرصيد): هو السَّبْعُ الذي يَرْصُدُ لِيَثِبَّ[1]؛ وقيل: هي الحيَّة التي ترصدُ المارَّة على الطريق لِتَلْسَعَ؛ وعليه فـ(مراصد الحيات): مَكَامِنُهَا[2].

وأكثر ما يستعمل لفظ (الرصيد) في القطاع المالي، وهو في اللغة مفرد لفظة (الأَرصدة)، ويُطْلِقُهُ الناسُ بتعبيراتٍ عديدةٍ، منها: قولهم: (كَمْ رَصِيدُكَ في المصرف الآن؟)، و(قرَّر القاضي تجميد الأرصدة)، و(الرَّصيد لا يسمح)، و(المبلغ الباقي في الرصيد لا يغطي مقدار المطلوب)، و(هذا صكّ أو شيك بدون رصيدٍ)، بمعنى: ليس له غطاءٌ كافٍ يَسْمَحُ بصرفه؛ و(هل رصيد الذَّهب بالبنك المركزي ثابت أو متغيّر)، أيْ: ذلك الذهب الضامن لإصدار الأوراق النقديّة التي يستعملها الناس في حياتهم اليومية لاقتناء أغراضهم وحاجاتهم؛ و(رصيدٌ دَائِنٌ)، وهو رصيد الحساب الذي يزيد فيه مجموع المبالغ الدائنة على مجموع المبالغ المدينة؛ و(هذا رصيد قديم)، أيْ: رصيد لا يحوي شيئًا وصاحبه مُفْتَرِضٌ من المصرف؛ و(رصيدٌ مدينٌ) وهو رصيد الحساب الذي تزيد فيه المبالغ المدينة على مجموع المبالغ الدائنة[3].

واصطلاحا: « هي مجموعُ مَا يبقى للمُودِعِ مِن أموالٍ في حسابه الجاري بالمَصْرِفِ »[4].

ـ تطور لفظ (الرصيد) زمنيا:

تطوّر هذا المصطلح عبر الزمن، فبعدما كان يطلق على الجانب المالي، فيقال: ما يعرف بـ(ميزان التَّبادل التِّجاريّ)، وهو في حقيقته فَرْقُ القيمة الكليَّة لصادرات بلدٍ وواردات في فترةٍ معيَّنةٍ، أيْ: بيانٌ يَتِمُّ به المقارنةُ بين قيمة الصادرات وقيمة الواردات لإحدى الدول، وفيه يظهر الرصيد الدائن أو المدين[5].

---

[1] ينظر: مقاييس اللغة، لـ: أبي الحسين أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، (395ت. ه)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، (1399هـ-1979م)، عدد الأجزاء: (6)، (400/2)؛ شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم، لـ: نشوان بن سعيد الحميرى اليمني، (573ت. ه)، تحقيق: د حسين بن عبد الله العمري، مطهر بن علي الإرياني، د. يوسف محمد عبد الله، دار الفكر المعاصر، بيروت-لبنان؛ دار الفكر، دمشق-سورية، ط.1، (1420 هـ-1999م)، عدد الأجزاء: (11 مجلد)، (2513/4).

[2] تاج العروس من جواهر القاموس، لـ: أبي الفيض مرتضى محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني الزَّبيدي، (ت.1205 ه)، تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الهداية، بدون طبعة وبدون تاريخ، (102/8).

[3] ينظر: معجم اللغة العربية المعاصرة، لـ: أحمد مختار عبد الحميد عمر، بمساعدة فريق عمل، (898/2)، برقم: (2113).

[4] ينظر: معجم اللغة العربية المعاصرة، لـ: أحمد مختار عبد الحميد عمر، بمساعدة فريق عمل، (2/ 898)، برقم: (2113)؛ المعجم الوسيط، (348/1).

[5] ينظر: معجم اللغة العربية المعاصرة، لـ: أحمد مختار عبد الحميد عمر، بمساعدة فريق عمل، (284/1).

وحتى في مجال الفنّ والسينما في عصرنا، يطلق هذا المصطلح في كثير من الأحيان، فيقال: (الرَّصيد الدِّراميّ)[1]. و(الرصيد الثقافي)، وهكذا.

ثمّ أصبح يعني **اصطلاحا:** « ذلك الكمُّ الهائلُ من المعلومات التاريخية والثقافية والمالية والعملية وغيرها التي تتراكم في ذهن الإنسان وخبرته وتجربته في الحياة، لِتُفِيدهُ في مناحي حياته، فيقال: له رصيد لغوي ووظيفي وثقافي وعلمي وفكري ومالي وتقني وصناعي»[2].

وعلى هذا الأساس، رَأَيْنَا كيف استفادت الدوائر العلمية في بعض البلدان من هذا المعنى، فَصُنِّفَت فيه مؤلَّفاتٌ مِن قِبَلِ أهلِ الاختصاص في هذا الشأن، وهو ما يتوافق مع ما نحن بصدد بيانه، مثلما فَعَلَت اللجنةُ الدائمة للرصيد اللغوي[3] بـ(تونس)، في الكتاب الذي أصدرته وعَنَوْنَتْهُ بـ: (**الرصيد اللغوي الوظيفي للمرحلة الأولى من التعليم الابتدائي**)[4].

وكذا فعل مجموعة من الباحثين، حيث عَنْوَنُوا كتابهم بـ(الرصيد اللغوي العربي لتلاميذ الصفين الخامس والسادس بالمرحلة الابتدائية في السعودية من واقع كتاباتهم)[5].

ويمكنني أن أقول: إنَّ عملَ علماءِ الكلام يُشْبِهُ عَمَلَهُمْ ـ إلى حدٍّ مَا ـ مَا يَفْعَلُهُ علماءُ الفَضَاءِ بـ (التِّلِسْكُوبْ)، وهي آلـةٌ علميةٌ يَنْظُرُونَ بها إلى الكواكب، ويرصدون ويراقبون بها حركةَ الأجْرَامِ السماويَّة في الفضاء الخارجي، لِفَهْمِ بعضِ أسْرَارِها وخَبَايَاهَا.

ووجه الشبه بَيِّنٌ الأمْرَيْنْ: أنَّ تلك القواعد والضوابط والبراهين العقلية والنقلية التي كان يستخدمها المتكلمون قديمًا، ولا يزالون إلى عصرنا هذا، تُشْبِهُ ما يقوم به علماءُ الفضاء، في رَصْدِ كلِّ صغيرةٍ وكبيرةٍ من تلك الشُّبُه والضلالات التي يستخدمها أعداء الإسلام في كلِّ عَصْرٍ ومِصْرٍ، للنَّيْلِ منه؛ فيردُّونها ويُبْطِلُونها، ويُفَنِّدُونَها بما لَدَيْهِم مِن قُوَّة الحجَّة، وسلامة اللُّغَة، ودقَّة الأدلَّة، وبذلك يصدق فيه قوله تعالى: ﴿ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍۚ ﴾ [التوبة: 5].

---

[1] هو مجموع ما سبق أن مَثَّلَتْهُ الفرقةُ المسرحيّة والسينمائية من مسرحيّات أو أفلام تعيد عرض بعضها إذا اقتضى الأمر ذلك، من غير أن تلجأ إلى تمثيل مسرحيّات أو أفلام جديدة جديدة؛ ينظر: معجم اللغة العربية المعاصرة، لـ: أحمد مختار عبد الحميد عمر، بمساعدة فريق عمل، (732/1)، بتصرف.

[2] هذا التعريف الاصطلاحي من اجتهادي الشخصي، حسب فهمي للموضوع، والله أعلم بالصواب.

[3] هي الهيئة الاستشارية للمغرب العربي في التربية والتعليم بـ(تونس).

[4] طبع الكتاب بـ(تونس)، في طبعته الثانية سنة (1976م)؛ ينظر: معجم اللغة العربية المعاصرة، لـ: أحمد مختار عبد الحميد عمر، بمساعدة فريق عمل، (47/1).

[5] شارك فيه مجموعة من الباحثين، وهم: د. محمد عيسى فهيم، د. عبد الرازق أحمد ظفر، د. محمد مرسي الحارثي، د. البدراوي عبد الوهاب الوهاب زهران، د. رشدي أحمد طعيمة، د. غسان خالد باري، أسامة عثمان الجندي؛ ينظر: معجم اللغة العربية المعاصرة، لـ: أحمد مختار عبد الحميد عمر، بمساعدة فريق عمل، (47/1).

ومن هنا، فلا غرابة أن يستطيع علماؤنا المعاصرون، الذين ماتوا، كالبوطي في كتابه (كبرى اليقينيات الكونية) وباقي مصنفاته، ومحمد الغزالي، وأحمد ديدات في مناظراته مع علماء الغرب، وخاصة النصارى منهم، والذين لا يزالون على قيد الحياة، كالقرضاوي والزنداني وزغلول النجار وعبد المجيد النجار، وغيرهم كثير، في دفع سائر الأباطيل والتُّرَّهَاتِ والمكائد التي تُثَارُ حولَ الإسلام ونَبِيِّ الإسلام ومعتقدات المسلمين.

وبعبارة أخرى، يظهر لنا من تلك الفوائد الناتجة عن تفعيل علم الكلام في عصرنا: أن يدرك أهله المختصون فيه، أنّ عملهم يشبه ذلك العمل الذي يقوم به علماء الرصد الجويِّ، مرصدهم الجوّيّ، وهو ذلك المبنى الضخم الذي تُعَيَّنُ فيه حركات الكواكب وأحوال الطَّقس وتُسجَّل فيه الزلازل، وغيرها، أو ما يطلق عليه أيضا بـ(المرصد الطَّائر)، وهو: جهاز يسجِّل آليًّا عدَّة عناصر جوّيّة كالحرارة والضغط والرطوبة، يحمله منطاد مملوء بالأيدروجين، أو حتى (المرصدة الجويَّة)، وهي: آلة علمية في الطائرة تدوِّن الحرارة والضغط الجوي والرطوبة في وقت واحد[1].

وعلى هذا الأساس يمكنني القول أيضا: أنّ الذي لا يستعين بمجهود علمائنا الكلامي، أو يحاوله تطبيق منهجه دون معرفه أسسه التي يقوم عليها وبراهينه وقوانينه وضوابطه، فمثله مثل الإنسان المدين المودع أمواله بالبنك أو المصرف، فهو يحاول من المصرف سَحْبَ مبلغٍ أكبر من المبلغ المتوفّر في حسابه على المكشوف، فيفرط في السحب من البنك بأكثر من الرصيد المتوفَّرِ[2]، فيقع في الحرج والضيق، وربما أدى به ذلك إلى السجن، وهكذا الذي لا يُفَعِّلُ علمَ الكلام عقلا ونقلا بما ينفعه دينيًا وحتى دنيويًا.

وبهذا نعلم أيضا: أنَّ من نتائج تفعيل علم الكلام التاريخي: هو الربط بين جهود الماضين وجهود المعاصرين، والاستفادة منهما في الدفاع عن الإسلام ومعتقدات المسلمين، واختيار أحسن الطرق والسبل والمناهج في نشر الإسلام وبيان محاسنه، ورَدِّ شُبَهِ المبطلين والملحدين والجاهلين.

كما ندرك أنّ هذا العلم، ليس كما يزعمه بعض الجهلة لا فائدة منه، بل العكس هو الصحيح، بشرط استخدامه بما ينفع، وفيما ينفع، لا استخدامه من أجل الجدال للجدال، فهو علم نافع، ووسيلة شرعية قوية في إثبات عقائد الإسلام ونشره بين الناس.

---

[1] ينظر: معجم اللغة العربية المعاصرة، لـ: أحمد مختار عبد الحميد عمر، بمساعدة فريق عمل، (899/2).

[2] ينظر: معجم اللغة العربية المعاصرة، لـ: أحمد مختار عبد الحميد عمر، بمساعدة فريق عمل، (1939/3).

وهناك نقطة في غاية الأهمية متعلقة بدراسة علم الكلام، وتظهر فائدته في وقتنا المعاصر بشكل واضحٍ، ألَا وهو الربط بين العلوم المتداخلة بينه وبين علم الجدل وعلم المنطق والتصوف...، وغيرها، وهذه العلوم الأربعة في غاية النفع والأهمية في عصرنا، كونها مما يتطلَّبُه زمَانُنا، وكثير من رجالات العلم في الغرب في أوروبا وأمريكا وحتى آسيا، دخلوا في الإسلام لما علموا حقائقه المبنية على هذه الأصول الكلية، ومن هنا فلا غرابة أن يجمعها علَّامتنا الجزائري الجليل أبو العباس أحمد بن زكري التلمساني المتوفى سنة (900 هـ)، حيث صنَّف منظومة عقدية كلاميةً، سمَّاها: (محصل المقاصد مما به تعتبر العقائد)، بِنَاءً على هذه الفكرة التي ذكرتها، ولَمَّا ختمها رَبَطَ عِلْمَ الكلام في الأخير بعلم التصوف، إدراكا منه بأهمية ربط الإقناع الكلامي بالهدف الغائي من دين الإسلام، وهو تحقيق السعادة الدنيوية والأخروية، لأنَّ الإسلامَ دينٌ ودُنْيَا، وهذا ما يُستفَادُ بشكلٍ أساسيّ من علم التصوُّف؛ وفي هذا الصَّدَدِ يقول ابن زكري ـ رحمه الله ـ[1]:

يَمْنَحُ مِنْ أَدِلَّةِ التَّوْحِيدِ * مَا يُرْتَقَى بِهِ عَنِ التَّقْلِيدِ
يَحْصُلُ مِنْهُ لِلذَّكِيّ تَبْصِرَهْ * وَلِلْمُحَصِّلِ يَكُونُ تَذْكِرَهْ

وواضح تماما من كلامه هذا أنَّ رجزه هذا الذي صنَّفَه يتضمَّنُ مِن أدلَّة التوحيد ما يُخْرِجُ دَارِسَهُ عن التقليد، ويُقَوّي لَدَيْهِ ملكةَ النَّظرِ والاستدلال، لِثَرَائِهِ بالجانب الاستدلالي، وأنَّه عامُّ النَّفْع للمُتَعَلِّم والعالِم على حدٍّ سواءٍ، كلٌّ على قَدْرِ فَهْمِهِ ومُسْتَوَاهُ، فهو يُبَصِّرُ الأوَّلَ، ويُذَكِّرُ الثانيَ.

ويكتملُ هذا النفعُ بما قرَّرَهُ في أواخر نظمه، بيانًا لحقيقة التصوف ودوره في تصفية باطن الإنسان من كدرات نفسه، بقوله[2]:

فَصْلٌ بِهِ خَاتِمَةُ التَّصَوُّفِ * لِمَا جَرَى لَهُ مِنَ التَّشَوُّفِ
عِلْمٌ بِهِ تَصْفِيَةُ البَوَاطِنِ * مِنْ كَدُرَاتِ النَّفْسِ فِي البَوَاطِنِ
بِهِ وُصُولُ العَبْدِ لِلإِخْلاَصِ * رُوحُ العِبَادَةِ بِالاِخْتِصَاصِ

---

[1] محصل المقاصد مما تعبر به العقائد، لـ: أبي العباس أحمد بن زكري التلمساني الجزائري، (ت.900 هـ)، دراسة وتحقيق: عبد الرزاق دحمون، دار المعرفة الدولية للنشر والتوزيع، الحراش- بالجزائر العاصمة، طبعة خاصة (2011م)، (ص/192)، البيت برقم: (57) و(58).

[2] محصل المقاصد مما تعبر به العقائد، لـ: أبي العباس أحمد بن زكري التلمساني الجزائري، (ص/299)، البيت برقم: (1440) و(1441) و(1442).

ويظهر بهذا الكلام الدقيق أنَّ علمَ التصوف يُعْرَفُ به كيفيةُ تصفية الباطن من عيوب النَّفْس وصفاتها المذمومة، كالغِلِّ والحِقْد، والحَسَد والغِشِّ، وطَلَب العُلُوِّ وحبّ الثناء، والكبر والرياء، والغضب والأنفة، والطمع والبخل، وتعظيم الأغنياء والاستهانة بالفقراء...، إلخ.

فعلم التصوف من أعظم الوسائل التي بها يطلع الإنسان على عيوب نفسه، ويتمكن من علاجها، بعد تحرّزه من الرياء الجليّ والخفيّ وقصد الهوى النفسي؛ لأنَّ بهذا العلم يتوصل إلى قطع عقباتها، ويتنزّه عن أخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثة، ويتمكَّن من تخلية قلبه عن غير الله تعالى، وتحليته بذكره سبحانه وتعالى، وكلُّ ذلك مشروطٌ بالإخلاص، وهو إفرادُ الله تعالى في الطاعة بالقصد، بمعنى: أن يريد بطاعته التَّقَرُّبَ إلى الله تعالى دون شيءٍ آخرَ من تَصَنُّعٍ لمخلوقٍ، أو لاكتسابِ مَحْمَدَةٍ عند الناس، أو محبَّة مِن مَدْحٍ من الخلق، أو معنًى من المعاني سوى التَّقَرُّبَ به إلى الله تعالى[1].

وبهذا كُلِّهِ يظهر ذلك التفعيل الحقيقي لمعاني العلوم التي عاشها علماؤنا في الزمن الماضي، فقد حقَّقُوها في حياتهم اليومية تحقيقا عَمَلِيًّا إيجابِيًّا، وإلى هذا المعنى يشير أحد السادات العارفين وهو الإمام ابن عطاء الله السكندري، بقوله: « والأعمال صورٌ قائمةٌ، وأرْوَاحُها وجودُ سِرِّ الإخلاص فيها »[2].

ثالثا ـ معنى لفظة (التفعيل) في اللغة والاصطلاح:

(التفعيل) لغة[3]: لفظة عربية صحيحة فصيحة، بمعنى: تنشيطُ الشيء وتَقْوِيَتُه، مادِّيًّا ومعنَوِيًّا، مشتقٌّ من قولك: (فعَّلَ الأمرَ، يفعِّلُه، تفعيلًا، فهو مُفعِّلٌ)، والمفعول (مُفعَّلٌ): إذا نشَّطَهُ وقَوَّاهُ، و(فعَّلَ مساعيه): قوَّاها ونشطها بما يؤكِّدُها، و(فَعَّلَ المؤتمر): إذا أوصى المؤتمر بتفعيل توصياته ومتابعتها؛ و(فعَّل البيتَ الشِّعْريّ): قطَّعه ووزنه عروضيًّا؛ وكتب تفعيلاته.

واصطلاحا: « هو العمل على تفعيل دور العلوم والفنون في حياة الناس تفعيلًا إيجابيًا في كلِّ مناحي الحياة ».

---

[1] ينظر: مختصر نظم الفرائد ومبدي الفوائد في شرح محصل المقاصد، لابن زكري التلمساني الجزائري، (ت: 900 ه)، تأليف الشيخ أبي العباس أحمد بن عليّ المنجور الفاسي المغربي، (ت.995 ه)، دراسة وتحقيق: عبد الرزاق دحمون، دار ابن حزم، بيروت ـ لبنان، ط.1، (1435 هـ ـ 2014م)، (2/1321، 1322).

[2] الحكم العطائية والمناجاة الإلهية، لـ: تاج الدين أحمد بن محمد بن عبد الكريم بن عطاء الله السكندري، (ت.709 ه)، صححها وعلّق عليها: حسن السماحي سويدان، ط.1، (1419 هـ ـ 1998م)، (ص/11).

[3] ينظر: معجم اللغة العربية المعاصرة، لـ: أحمد مختار عبد الحميد عمر، بمساعدة فريق عمل، (3/1725)، برقم: (3806) ـ مادة (ف. ع. ل).

ولهذا رأينا كيف أنَّ عُلمَاءَنَا قديمًا وحديثًا، ولا يزالون يحبُّون العمل على تفعيل دور التعليم ويوجبون ذلك على طلبتهم وأتباعهم، لِمَا لَهُ من دَوْرٍ في نهضةِ الأمَّة واستعادة مجْدِها.

رابعا ـ معنى لفظة (التوظيف) في اللغة والاصطلاح:

(التوظيف) لغة: الاستثمار في الشيء وتنميته، مشتقٌّ من قولك: (وظَّفَ الرجلُ أخاه في شركته، يوظِّفه، توظيفًا، فهو مُوظِّف)، والمفعول (مُوَظَّفٌ): إذا أسند إليه وظيفةً أو عملًا معيَّنًا، و(وظّفه في بلديّة المدينة) و(وظَّفَه في المصرف الحكوميّ): إذا شغّله فيه؛ و(وظَّف رأسَ ماله): إذا استثمرهُ ونمَّاه، و(وَظَّفَ رَأْسَ مَالِ الشَّركة في مشروعات عديدة)، و(وظَّف المؤسَّسةَ): زوَّدها بأعضاء أو موظَّفين جُدُد؛ و(وظَّف عليه العملَ أو الخراجَ أو نحوَ ذلك): إذا قدَّره عليه وعيَّنه؛ و(وظَّف على الصَّبيّ جُزْءًا من القرآن كلّ يوم يحفظه: إذا كلفه بحفظه وفهمه[1].

واصطلاحا: « حسن الاستثمار في الشيء والاستفادة منه ماديًّا ومعنويًّا »[2].

خامسا ـ معنى لفظة (الخبرة) في اللغة والاصطلاح:

(الخِبْرة) لغة: التجربة الناتجة عن التمرس في الشيء، جمعها: (خِبْرات)، من قولك: (خبَرَ الشيء، يخبُره، خبرا وخبرة، فهو خبيرا)، ومنه أطلق على أهل الاختصاص في أي حرفة أو علم أو فنٍّ بـ: (أهل الخِبْرة):

واصطلاحا: « هم الخُبراء ذَوُو الاختصاص الذين يعود لهم حقُّ الاقتراح والتقدير ».

وإذا بحث عن وظيفة أو شغل منصب، طلب منه ما يسمى بـ(شهادة الخِبْرة)، وهي المستند الرسمي لإثبات خبرته.

ولا شكّ أنّ هذه التسمية هي نتاج ما مَرُّوا به هؤلاء الأشَّخاص من أحداث وتجارب أو رأوه أو عانوه، فهي مجموع تجارب الإنسان وثقافته ومعرفته، ولهذا يقال في عصرنا على المختص في الاقتصاد ـ مثلا ـ: (له خِبْرة بالاقتصاد العالميّ)، و(الشباب تنقصهم الخِبْرة)، و(تبادُل الخِبْرات بين الجامعات والمؤسسات العلمية)، بهدف استفادة كلّ شخص أو طرف بخِبْرة الآخر[3].

---

[1] ينظر: معجم اللغة العربية المعاصرة، لـ: أحمد مختار عبد الحميد عمر، بمساعدة فريق عمل، (2464/3)، برقم: (5637)، مادة: (و. ظ. ف).

[2] التعريف في المتن أعلاه باجتهاد منّي، حسب ما وقفت عليه من تعريفات علماء اللغة.

[3] ينظر: المصدر نفسه، (608/1)، برقم: (1547)، مادة: (خ. ب. ر).

سادسا ـ معنى لفظة (الاستفادة) في اللغة والاصطلاح:

(الاستفادة) لغة: طلب ما فيه فائدة ونفعٌ، مشتقّ من قولك: (استفادَ من الشيء، يستفيد، استفادةً، فهو مُستفيد)، والمفعول (مُستفاد)، و(استفادَ مالًا أو علمًا أو نحوَهما): اكتسبه وانتفع به، و(استفاد الكثيرَ من المعلومات من قراءة هذا الكتاب): إذا جنى منه نفعًا، وحصَّل منه على فائدة[1]، واستفادت الشركة من مواهب العلماء): إذا وظفت مواهبهم ومعارفهم واستغلّتها لصالحها وتنمية مكاسبها.

واصطلاحا: « هي طلب ما فيه الفائدة والنفع في كلِّ شيءٍ »[2].

سابعا ـ التعريف بـ (الحضاري) في اللغة والاصطلاح:

لفظة (**الحضاري**) مأخوذة لغة من (**الحضارة**)، ويعتبر ابن خلدون الإشبيلي من أوائل العلماء الذين تطرَّقوا لتعريفها في مقدِّمَتِه، فهي ضِدُّ (البداوة)، وعليه فـ(البَدْوُ) أقْدَمُ من (الحَضْر)، لأنَّهُم يقتصرون على انْتِحَالِ الزِّرَاعَة والقيام على الحيوان لتحصيل ما هو ضروريٌّ لمعاشهم؛ أما الحضر، فإنَّ انتحالهم للصنائع والتجارة يجعل مكاسبهم أكثر من مكاسب أهل البدو، وأحوالهم في معاشهم زائدة على الضروريّ منه[3].

وأما (**الحضارة**) اصطلاحا: "هي ثمرة ذلك التفاعل الإيجابي بين الإنسان والكون والحياة "[4]، أيْ: استغلال كلّ المكوّنات المحيطة بالإنسان، والاستفادة منها إيجابيًّا، لتحقيق رفاهية الإنسان وسعادته.

ثامنا ـ التعريف بـ (المعاصر) في اللغة والاصطلاح:

(المعاصر) لغة: لفظ عربي فصيح، مأخوذ من (المعاصرة)، وقد وَرَدَ في بعض المعاجم العربية، كالقاموس وغيره، وهو في اللغة: اسم من (عاصر)، من قولك: (عاصر الرجل فلانا، يعاصره، معاصرة، فهو معاصر له)، والمفعول (معاصَرٌ): إذا عاش معه في عصر واحد؛ و(العصر): الوقت في آخر النهار إلى احمرار الشمس؛ ويراد به أيضا: كلّ مدَّة ممتدَّة غير محدودة، تحتوي أُمَمًا تنقرض بانقراضهم[5].

---

[1] ينظر: المصدر نفسه، (3/ 1758)، برقم: (3906)، مادة: (ف. ي. د).

[2] التعريف في المتن أعلاه باجتهاد منّي، حسب ما وقفت عليه من تعريفات علماء اللغة.

[3] ينظر: المقدمة، لـ: ابن خلدون، تحقيق: محمد الشامي، دار الكتاب الحديث، دراربة- الجزائر العاصمة، (2016م)، (ص/131 ـ 135).

[4] ينظر: حربة التفكير في الإسلام وأثرها في البناء الحضاري المعاصر (القرن 19م ـ 20م)، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماستر في العلوم الإسلامية تخصص: العقيدة، إعداد الطالبة: نفيسة حمودة، إشراف: أ. د.عبد الرزاق دحمون، التاريخ: جوان (2018م)، الدفعة السابعة، (ص/19).

[5] معجم اللغة العربية المعاصرة، لـ: أحمد مختار عبد الحميد عمر، بمساعدة فريق عمل، (1507/2)، برقم: (3388).

وأما **اصطلاحا:** « هو الزمن المعاصر الذي تعرف فيه البشرية التطور العلمي والتكنولوجي المتسارع بكلّ ما فيه من محاسن ومفاسد »[1].

بعد هذا العرض اللغوي والاصطلاحي لألفاظ عنوان البحث، يتبيّن لنا من خلاله المعنى العام له، والغرض منه.

وبهذا أصبح معنى (التفعيل الحضاري المعاصر) يعني: «الأخذ بأسباب التحضُّر الذي وصلت فيه البشرية إلى درجات متقدمة من التطور العلمي والتكنولوجي، ولكن من منظور ديننا الإسلامي الحنيف، المحافظ على أحكام الإسلام والقِيَمِ والأخلاق الإسلامية الراقية »؛ فهو من جهة يتَّسِم بالثبات والتوازن، وفي الوقت نفسه يتفاعل من تطور حياة الإنسان المرتبطة بالكون والحياة، ليعطي نظرة جديدة عن حضارة الإسلام المنشودة المتصفة بالكمال والمواكبة لمقتضيات عصر الإنسان وحاجياته في زماننا هذا.

ـ وقد فهم علماؤنا الأوائل مدى أهمية مظاهر التقدم الأدبي والفني والعلمي والتقني وغيره، في المجتمع العربي والإسلامي، والتي كانت تنتقل من جيلٍ إلى جيلٍ، وقد مثَّلت مرحلةً زاهيةً في التاريخ البشري، على الرغم ممَّا كان يعتريها بين فترةٍ وفترةٍ من نقائص؛ وبالمقابل كانت البشرية تشهد مراحل من الهمجية والتوحُّش[2].

وسبب هذا التقدم الذي عرفته الأمة العربية والإسلامية في الزمن الماضي، يرجع إلى تحقُّق الشروط الذاتية والموضوعية فيه، ذلك أنَّ مفهوم الحضارة عند العرب والمسلمين وقتها كان يشمل الجانب الروحي والمادي معا؛ وهذا المعنى يتأكّد بما ذكره المفكر ألبرت أشفيتسر في كتابه حول (فلسفة الحضارة)، حيث يشترط التقدَّم الروحي والمادي للأفراد والجماهير على السواء، وهذا لأنّ التقدُّمَ لا يكون إلا بسيادة العقل على الطبيعة الكونية والإنسانية، بحيث يجعل إرادتهم موجّهة للخير المادي والروحي لِلْكُلِّ، بمعنى: أن تكون أفعالهم ذات بعد أخلاقيٍّ، ولا ليس ماديٍّ بَحْتٍ، فالتقدُّم الأخلاقي هو جوهر الحضارة[3].

ومن هنا ندرك أنَّ القيم الأخلاقية والمعاني الروحية هي أحد أهمّ أركان الحضارة عندنا نحن المسلمون، لكونها تفضي إلى تحقيق الأمن والسعادة والخير والاستقرار للناس جميعا؛ وإلى جانب عامل التراب والوقت، فإنّ الإنسان هو المعادلة الأساسية في هذا

---

[1] التعريف في المتن أعلاه باجتهاد منّي، حسب ما وقفت عليه من تعريفات علماء اللغة.

[2] ينظر: المعجم الفلسفي، لـ: جميل صليبا، دار الكتاب اللبناني، بيروت ـ لبنان، (1982م)، عدد الأجزاء: (2)، (476/1).

[3] ينظر: فلسفة الحضارة، لـ: ألبرت أشفيتسر، تحقيق: د. زكي نجيب محمود، ترجمة: د. عبد الرحمن البدوي، مطبعة مصر، القاهرة-مصر، (1963م)، (ص/34).

التفاعل الحضاري من منظور المفكِّر الجزائري مالك ابن نبي، فهو أسُّ الحضارة ورأسها الذي يُنْتِجُ الحضارةَ، وبذلك تنطلق نحو وجهتها المسطَّرة بتقدير الله تعالى في هذا الكون[1].

وعلى هذا الأساس، يتضح لنا أنّ الإنسان هو الذي يعتنق الفكرة، ويتفاعل معها، فيصبح إنسانا فعَّالًا، يستثمر عنصرَ (التراب) و(الوقت)، وينطلق من فكرته الدينية والأخلاقية نحو ثقافة خاصة به، ليبني بذلك حضارة، وتبعا لذلك عرّفها مفكرنا الكبير مالك بن نبي، بقوله: « هي مجموعة الشروط المعنوية والمادية التي تتيح لمجتمعٍ مَا أنْ يُقدِّمَ جميع الضمانات الاجتماعية لكلّ فردٍ يعيش فيه »[2]؛ وهذا المعنى هو الذي ميّز حضارتنا الإسلامية عن غيرها من الحضارات، لأنها تنطلق من الفكرة الدينية التي تطبع الفرد بطابعها الخاصّ، وتوجِّهُه نحو غايات سامية[3]؛ وبذلك فهي حضارة إنسانية، تراعي تحسين ظروف حياته ماديا ومعنويا، بخلاف غيرها فهي تنحى منحى لا إنساني[4].

والفكرة نفسها يؤكدها المفكِّر محمد البهي في كتابه: الدين والحضارة الإنسانية[5]، حيث يركّز على أهمية ربط الإنسان علاقاته الاجتماعية بأفراد المجتمع الآخرين، والابتعاد عن (حبِّ الأنا)، وهو ما يُؤَهِّلُه لِأَنْ يكون إنسانًا اجتماعيًا أو مدنيًا أو حضاريًا، ذلك أنّه كلما كان تفكير الإنسان أو تصوره أو فنّه أو سلوكه، أوسع شمولا في الاعتبار والصلاحية في التوجيه، كان له دخل في الإسهام في الحضارة البشرية، أو في تقدُّمِها ونموُّها[6].

---

[1] ينظر: ميلاد مجتمع، لـ: مالك بن نبي، ترجمة: عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق-سوريا، (1394 هـ ـ 1974م)، (ص/36، 37)؛ شروط النهضة، لـ: مالك بن نبي، ترجمة: عمر كامل مسقاوي، وعبد الصبور شاهين، دار الفكر، الجزائر، ط.3، (1969م)، (ص/74)؛ التخلف والتنمية في فكر مالك بن نبي، لـ: طاهر سعود، دار الهادي، بيروت ـ لبنان، ط.1، (1427 هـ ـ 2006م)، (ص/207)؛ ويقول الباحث محمود عكام في كتابه: من مقولات الفكر الإسلامي، رؤية جادة لموضوعات هامة، (ص/16): « الإنسان هو أسُّ الحضارة، وهو أقنومها الأهمّ، ومحورها وقطبها ومرتكزها، وهو الحَكَمُ والخَصْمُ، فهي شاملة له، لِكُلِّهِ، لأبعاده، لمخزونه، لشعوره، لكلّ ذرّة فيه، مرئية وغير مرئية، محسوسة ونفسية »، فلا تفعيل حضاري منشود إلا بهذا الإنسان المطلوب منه التعامل مع هذه العناصر المكونة للحضارة، ثم يأتي التراب والوقت، والفكرة الدينية.

[2] المسلم في عالم الاقتصاد، لـ: مالك بن نبي، دار الشروق، بيروت- لبنان، (1394 هـ ـ 1974م)، (ص/71).

[3] شروط النهضة، لـ: مالك بن نبي، (ص.50)؛ حرية التفكير في الإسلام وأثرها في البناء الحضاري المعاصر (القرن 19م ـ 20م)، لـ: نفيسة حمودة، (ص/17).

[4] من مقولات الفكر الإسلامي، رؤية جادة لموضوعات هامة، لـ: محمود دعكام، فصّلت للدراسات والترجمة والنشر، حلب- سوريا، ط.1، (1422 هـ ـ 2002م)، (ص/16).

[5] ينظر: الدين والحضارة الإنسانية، لـ: محمد البهي، مكتبة الشركة الجزائرية مرازقة بوداود وشركاؤهما، باب عزون، الجزائر العاصمة، (د. ت. ط)، (ص/49 ـ 51).

[6] ينظر: الدين والحضارة الإنسانية، لـ: محمد البهي، (ص/55 ـ 56).

المبحث الثاني: علم الكلام (علم أصول الدين) وأهميته في حياة المسلم:

يعتقدُ المؤمنَ اعتقادًا جازمًا أنَّ الله تعالى هو المتفرّد بنعوت الكمال، والمتنزّهُ عن الشركاء والنظراء والأمثال، والمتقدِّس عن سمات الحوادث من التغيير والانتقال والاتصال والانفصال، فهو عز وجلّ عالم الغيب والشهادة، الكبير المتعال.

فقد كان هذا العلمُ ولا يزالُ من أشرف العلوم، كونه يجمع بين المعقول والمنقول، فعلم الكلام أو علم أصول الدين أو علم التوحيد يعتبر من أشرف العلوم، وشرفه على ما سواه منها معلوم، إذ هو الجامع بين نتائج المعقول وبين قضايا الشرع المعقول؛ وبه يتوصل إلى معرفة الواجب لذاته المعبود؛ وبه تنكشف أحوال السعداء وأهل الجحود، وشرف العلم إنما هو بحسب شرف المعلوم، ولا أجلَّ من ذات الله تعالى سبحانه وصفاته، فوجب أن يكون العلم الموصل إلى معرفة الله وصفاته أجلَّ العلوم، على حَدِّ تعبير إمامنا الجزائري أبي العباس أحمد ابن زكري التلمساني[1].

فكلُّ من يحاولُ معرفةَ عِلْمٍ أو فَنٍّ، يجبُ عليه معرفة مطالبه الأساسية فيه، وهي مبادئه[2] المتعلقة ببيان حدِّه وفائدته وحكمه شرعًا وموضوعه ومسائله.

أوَّلًا ـ فائدة علم الكلام (علم أصول الدين):

وعلم الكلام (علم أصول الدين) يتوقف عليه تمييز حقائق الأشياء الكبرى في ديننا، وفائدته العظيمة هي الباعثة على طلبه، ويسميها الحكماء بـ(العلَّة الغائية)[3]، وهي متقدِّمة في التصوُّر، متأخِّرَة في الوجود، كالتَّاجِر، فإنَّه يَتَصَوَّرُ فائدةَ التجارة أوَّلًا، وهو الربحُ، فَيَتَّجِرُ لِتحصيلِها؛ فتَصَوُّرُ الرِّبْحِ متقدِّمٌ، ووجوده متأخِّرٌ؛ وكذلك فائدة كلِّ عِلْمٍ، فلَابُدَّ من معرفتها، لئلَّا يكون الطلبُ عبثًا؛ وهذا أيضا هو فائدة معرفة حكمه.

---

[1] ينظر: بغية الطالب في شرح عقيدة ابن الحاجب، لـ: أبي العباس أحمد ابن زكري التلمساني الجزائري، (ت.900 هـ)، دراسة وتحقيق: عبد الرزاق دحمون، دار المعرفة الدولية للنشر والتوزيع بالحراش، الجزائر، طبعة خاصة، (2011م)، (ص/91).

[2] (**المبادئ**) ـ عند المنطقيين ـ: « عبارة عن الأشياء التي تنبني مباحث الكلام عليها »؛ وهي إما تصوُّرٌ، وإمَّا تصديقٌ، سواء كانت التصديقات بيِّنة في نفسها، وتسمَّى (أوضاعًا)؛ أو كانت غير بيِّنة في نفسها، إلَّا أنَّها مبيَّنة في علمٍ آخر، وتسمَّى (مصادرات)؛ فكلُّ ما يتوقف عليه المقصود بوجه ما فهو من المبادئ، سواء كان باعتبار الشروع فيه، أو باعتبار البحث في مسائله؛ وسواء كان متوقفا معرفته من جهة المعنى أو من جهة اللفظ؛ أو كان معرفته من جهة معرفة موضوعه، أو باعتبار الغاية منه والمفهوم منه، وهي الفائدة، بعد معرفة إذْنِ الشرع فيه، وهو الاستمدادُ؛ ينظر: بغية الطالب في شر عقيدة ابن الحاجب، (ص/93).

[3] ينظر: معيار العلم في فن المنطق، لـ: حامد الغزالي، (ص/81)؛ المحصول من علم الأصول، لـ: فخر الدين الرازي، (ص/450، 451).

ثانيا ـ معرفة موضوع علم الكلام (علم أصول الدين):

وأمَّا معرفةُ الموضوع، فَلِأَنَّ موضوعَ العلمِ: "هو عبارة عما يبحث فيه عن عوارضه الذاتية "، أيْ: عوارضه التي تلحقه لما هو هو؛ كَـ: (بَدَنِ الإنسان لعلم الطبِّ)، فإنَّ الطبيبَ يبحثُ في الطبِّ على ما لِبَدَنِ الإنسانِ مِن الصحَّة والمرض؛ فبَدَنُ الإنسانِ موضوعٌ لِلطِّبِّ، والصِّحَّةُ والمَرَضُ عَرَضَانِ ذَاتِيَانِ لِلبَدَنِ، فَلَابُدَّ مِن معرفة الموضوع لِيُمْكِنَ البحثُ عن عوارضه.

ثالثا ـ معرفة مسائله:

وأما معرفة مسائله، فلأنها عبارة عما يبيّن في العلم، فلابدّ من تصوُّرها، ليمكن طلبها في العلم؛ وتبعًا لهذا، يمكني القول أنَّ مبادئ هذا العلم، هي « عبارة عن القضايا العقلية والقواطع السمعية فيما لا يتوقّف إثبات المعجزة عليه »، على حدِّ اصطلاح علماء المنطق.

رابعا ـ بيان حدّ علم الكلام

لعلم الكلام حدودٌ كثيرةٌ، منها تعريف عضد الدين الإيجي في (مواقفه) بقوله: « علمٌ يُقْتَدَرُ مَعَهُ على إثباتِ العقائد الدينية بإيراد الحجج ودفع الشُّبَه »[1].

وعليه، فالخصم عند علماء الكلام لا يُكَفَّرُ، وإنْ خطَّأه مُخَالِفُهُ؛ لِأَنَّ التكفيرَ له ضوابطُ صارمةٌ جدًّا؛ من هنا اشتهر علماء الكلام، بهذه التسمية، لأنّهم كانوا يترجمون كلامهم بقولهم: (باب الكلام على حدوث العالم)، و(باب الكلام في إثبات العلم بالصانع)...، الخ[2].

خامسا ـ فوائد علم الكلام:

كما كانوا يدركون فائدة هذا العلم، حيث قرَّروا أنّها تتلخّص في معرفة العقائد التي كُلِّفَت العقلاء بتحصيلها، المنطوية على النظر والاستدلال، المُوصِلَيْنِ إلى السعادة في الدارين، وهي معرفة المعبود وصفاته، ومعرفة الأنبياء والرُّسُل وما جاءوا به، وسائر مسائل الغيب المتعلِّقة بذلك.

---

[1] المواقف في علم الكلام، لـ: عضد عبد الرحمن بن أحمد الإيجي، دار عالم الكتب، بيروت ـ لبنان، مكتبة المتنبي القاهرة، مكتبة سعد الدين بدمشق، (د. ت. ط)، (ص/7).

[2] بغية الطالب في شرح عقيدة ابن الحاجب، لـ: أبي العباس أحمد ابن زكري التلمساني الجزائري، (ص/96).

سادسا ـ وجوب المعرفة، لأنها حاصلة بالنظر في هذا العلم:

من هنا قرَّر غير واحد من هؤلاء العلماء الأفاضل وجوب المعرفة، بناءً على أنَّها لا تحصلُ إلَّا بالنَّظر في هذا العلم؛ مِثْلَمَا نَقَلَ ذلك شهابُ الدين القرافي في كتابه (الذخيرة)[1] عن الإمام ابن القصار ـ رحمه الله ـ وغيره: أنَّ مذهب مالك وجوب النظر، وامتناع التقليد في أصول الديانات، خلافا لأهل الظاهر[2].

وقال شهاب الدين القرافي: « ورأيتُ لأبي حنيفة جوابا بالكلام، كتب به إليه مَالِكُ أنَّكَ تَتَحدَّثُ في أصول الدين، وأنَّ السَّلَفَ لم يكونوا يتحدَّثُون فيه؛ فأجاب: فإنَّ السلفَ ـ رضي الله عنهم ـ لم تكن البِدَعُ ظهرت في زمانهم، فكان تحريكُ الجواب عنها داعية لإظهار ما هو سَعْيُ منكرٍ عظيمٍ، فلذلك تُرِكَ؛ وفي زماننا ظهرت البدعُ، فلو سَكَتْنَا كُنَّا مقرِّرِينَ لِلبِدَعِ، فَافْتَرَقَ الحالُ »[3].

وهذا جوابٌ سديدٌ من الإمام أبي حنيفة، وهو يدلُّ على أنَّ البِدَعَ ظهرت في بلاد أبي حنيفة بالعراق، ومالك لم تظهر ببلاده، فلذلك أنكره.

سابعا ـ موضوعات علم الكلام (علم أصول الدين) تعمُّ الزمانَ والمكانَ

انكشفت أهمية هذا العلم مع ظهور قوَّة حجج أبي الحسن الأشعري وأصحابه وتلاميذه، الذين أصبحوا يُسَمَّوْنَ بـ(أهل السنة والجماعة)، ولا يزال الأمر هكذا إلى يومنا، لأنّهم أدركوا أنَّ موضوعات هذا العلم تَعُمُّ الزمانَ والمكانَ، وهو الوجودُ المطلقُ، ذلك لأنَّ مسائِلَه هي ما ثَبَتَ بالبراهين العقلية، كحدوث الجواهر والأعراض، وإثبات الصانع وصفاته، أو بالدلائل السمعية، كإثبات المعاد والحشر والنشر، ونحوها من المطالب.

وممَّا يُثْبِتُ صِحَّة هذا الكلام: ما يتعلَّق ببيان أوجه إعجاز القرآن الكريم، فهي مسألة فصَّل فيها علماء الكلام فيها تفصيلًا، حيث تقرَّر عندهم أنّ أَنَّ التَّعْجِيزَ بِالقُرْآنِ قَدْ حَصَلَ بِعَجْزِ الجِنّ وَالإِنْسِ عَنِ الإِتْيَانِ بِمِثْلِهِ[4]، وَهَذَا مَعْلُومٌ بِالحِسّ، مُدْرَكٌ بِالبَدِيهَةِ، وَقَدْ وَقَعَ التَّحَدِّي بِهِ مِنْ أَوَّلِ نُزُولِهِ، ثُمَّ اسْتَمَرَّ إِلَى الآنَ.

---

[1] الذخيرة، لـ: شهاب الدين أحمد بن إدريس القرافي، تحقيق: محمد حجّي، دار الغرب الإسلامي، بيروت ـ لبنان، ط.1، (1994م)، (231/13)؛ وانظر أيضا: أنوار البروق في أنواع الفروق، الفرق بين قاعدة ما يكون الجهل عذرا، (31/4).

[2] ينظر: البرهان في أصول الفقه، لـ: إمام الحرمين أبي المعالي، ركن الدين، عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن محمد الجويني، (ت.478 هـ)، تحقيق: صلاح بن محمد بن عويضة، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، ط.1، (1418 هـ ـ 1997م)، عدد الأجزاء: (2)، (ص/243، 244)؛ بغية الطالب في شرح عقيدة ابن الحاجب، لـ: أبي العباس أحمد بن زكري التلمساني، (ص/97).

[3] الذخيرة، لـ: شهاب الدين القرافي، مسألة قال رجل لمالك: يا إمام...، (243/13).

[4] وإليه الإشارة في قوله تعالى: ﴿**قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا القُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا**﴾ [الإسراء: 88].

وهذا المعنى يذكره الإدريسي في كتابه القيّم: (كفاية طالب علم الكلام..)، حيث يقول: « وَهَا نَحْنُ فِي المَائَةِ السَّابِعَةِ، مِنْ وَقْتِ نُزولِهِ، وَأَعْدَاءُ القُرْآنِ، المُكَذِّبُونَ بِهِ، مِنَ الإِنْسِ وَالجِنِّ، أَكْثَرُ مِنَ الأَوْلِيَاءِ المُؤْمِنِينَ بِهِ، أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً، وَالحَرْبُ مَنْصُوبَةٌ، وَالقَتْلُ وَالقِتَالُ وَارْتِكَابُ الأَخْطَارِ وَالأَهْوَالُ، وَإِبْلِيسُ وَجُنُودُهُ، وَسَائِرُ أَتْبَاعِهِ، يُقِرُّونَ وَيَعْتَرِفُونَ عِنْدَ سَمَاعِهِ، وَقَدْ يَئِسُوا مِنْ مُعَارَضَتِهِ، وَاسْتَعَدُّوا لِمُحَارَبَتِهِ؛ وَمَنْ زَعَمَ أَنَّ فِي وُسْعِ أَحَدٍ مِنْ أَعْدَائِهِ مُعَارَضَتَهُ، ثُمَّ تَرَكَهَا، وَرَضِيَ بِالحَرْبِ، وَالدُّؤُوبِ عَلَى الطَّعْنِ وَالضَّرْبِ، فَقَدْ بَاهَتَ؛ وَقَدْ حَاوَلَ مُعَارَضَتَهُ أَقْوَامٌ؛ فَمِنْهُمْ مَنْ أَبْدَى عَوْرَتَهُ؛ وَمِنْهُمْ مَن اِسْتَبَانَ غِرَّتَهُ، فَسَتَرَ سَوْءَتَهُ؛ وَقَدْ كَانَ مُسَيْلِمَةُ مِنْ فُصَحَاءِ العَرَبِ، فَلَمَّا عَارَضَ القُرْآنَ مَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِالرَّكِيكِ المُسْتَهْجَنِ، مَعَ احْتِدَاءِ أُسْلُوبِهِ »[1].

ومن هنا ندرك أهمية التفعيل الحضاري لهذا العلم، من خلال هذا الرصيد الكلامي لهم، ويؤكده الوقوف على أسباب تفوّق حضارتنا على غيرها من الحضارات.

ثامنا ـ قيام علم الكلام على حرية التفكير = (أسباب تفوق الحضارة الإسلامية على غيرها):

تميّزت حضارتنا الإسلامية عن غيرها بميزات هامَّة، منها: حرية التفكير، فهي قضية محورية في تاريخنا العربي الإسلامي، فقد قامت على أنقاض ذلك الجمود والتقليد الذي طبع حياة الناس في الجاهلية، فَهُمَا سَبَبَا انطفاءِ جُذُورِ العقل، وارتكاس الإنسان في ذلك الضلال والجهل، وهبوطه إلى مستوى التأخُّر والانحطاط، فلما جاء الإسلام شهد الناس ذلك النور والتقدُّم والتحضُّر.

وهذه الحرية المكفولة، يبني عليها ديننا الإسلامي إقناع الناس بعقائده، حتى أنّه يترك إيمانهم لمشيئتهم، بَعْدَ اقتناعٍ تامّ وهدوءٍ في اتخاذِ القرار بالإيمان أو الكفر، حيث يقول تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ ﴾ [الكهف: 29]، وتبعا لذلك يتحمَّل الإنسان نتائج أفعاله وأقواله، ثوابا أو عقابًا؛ بمعنى: أنَّه ليس هناك حدود تحدُّ من نشاط العقل وتفكيره، إلَّا التفكير في ذات الله تعالى، فإنَّ ذات الله تعالى لا تحيط بها الفكرة[2].

---

[1] ينظر: كفاية طالب علم الكلام في شرح الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد، مخطوط بـ: الخزانة العامة بالرباط، المغرب الأقصى، ورقة: (155/و).

[2] عناصر القوة في الإسلام، لـ: السيد سابق، دار الكتاب العربي، بيروت ـ لبنان، ط.2، (1393 هـ ـ 1973م)، (ص/140).

وترتَّب على هذه الحرية الفكرية عندنا نحن المسلمون: الاستفادة من تلك الكنوز العلمية التي تزخر بها المكتبة الإسلامية بآلاف الكتب المخطوطة والمطبوعة التي ألفها علماؤنا عبر توالي الأزمنة، حيث شملت كتب التفسير والعقيدة والفقه وأصوله والزهد وعلوم الطبّ والفلسفة والكيمياء والهندسة والرياضيات والفلك..، وغيرها؛ وكلّ هذا الجهد الهائل كان سببًا في نهضة العالم الأوروبي خصوصا، والغربي عموما.

وحرية التفكير هذه هيَّأت الطريقَ عندنا لأنواعٍ عديدةٍ من الحرِّيَّة في وقتنا المعاصر، فتناولت حرِّيَّة التعبير باللسان والقلم، وحرِّيَّة الرَّأْيِ البَنَّاءِ، والجهر بالحقِّ، خصوصًا عند انتشار الفساد والإلحاد والزندقة، وسائر أنواع الفساد المنافي لشرعة الإسلام.

ومن هذا المنطلق عرفنا في عصرنا الحالي كيف تطورت حرية الصحافة وحرية الخطابة وحرية الاعتقاد، وسائر أنواع الحرية التي كفلها ديننا، إذ التفكر عندنا تطلُّعٌ وتأمُّلٌ وانفتاحٌ للذَّاتِ الإنسانية على النظر في إبداع الخالق عز وجلَّ، على حَدِّ قوله تعالى: ﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾ [آل عمران: 191].

وهذا التفكُّر يدفع إلى توسعة العلوم الإنسانية، وتطوير الفكر الإنساني نحو الأفضل، لأنّه دافع أساسي، ومحرِّكٌ قويّ لزيادة إيمان العبد بربّه، وإقراره بعبوديته وطاعته له، والخضوع لشرائعه، فكلّما زادت مدارك العقل، كلما استطاع الإنسان أن يرى عظمة الخالق سبحانه وتعالى في كلِّ حركة وسكون[1].

وأدرك علماء الكلام أنّ حواسّ الإنسان، كـ: (العقل) و(السمع) و(البصر)...، تتظافرُ كلُّها للوصول إلى الحقِّ والنجاة من الأوهام؛ وقرَّرُوا أنَّ الإسلام لا يقبل الإيمانَ بأصول العقائد تقليدًا، بَلْ يُطالِبُ النَّاسَ بالتحقيق في أصول الدين، لأنّه يعتبر أنَّ التوحيدَ والنبوةَ والمعادَ وسائرَ أصُولِه الاعتقادية مسائلُ يَجِبُ التفكيرُ فيها، والوصولُ إلى حقائقها.

[1] ينظر: الحريات من القرآن الكريم، لـ: محمد علي الصلابي، دار ابن حزم، بيروت ـ لبنان، ط.1، (1422 هـ ـ 2013م)، (ص/63 ـ 64)؛ حرية التفكير في الإسلام وأثرها في البناء الحضاري المعاصر (القرن 19م ـ 20م)، إعداد الطالبة: نفيسة حمودة، (ص/25 ـ 26).

وتكمن أهمية حرية التفكير في كونها ذات فوائد متنوعة، سواء في بُعْدِها الفردي أو الاجتماعي أو الحضاري[1]، إذ تُحَرِّرُ الإنسانَ من أغلال التقليد والجمود، وتوجِّهُه نحو وظيفته الوجودية في الكون، وتدفعه للقيام بواجب النهضة والرقيّ المنشود على الدوام، إذ قياس حضارة المجتمعات إنما يكون بما لديها من أفكار تُبْدِعُ في صياغة نهجها نحو المستقبل[2].

وهذا النهج التفكيري يتوافق مع حرية الرأي في الإسلام، على حد تعبير مصطفى عبد الواحد في وقتنا الحالي[3].

فديننا الإسلامي يُنَوِّهُ كثيرًا بإعمال العقل، وينعى على من يُعَطِّلُ فِكْرَهُ ونَظَرَهُ، ويَسُدَّ مَنَافِذَ المعرفة لديه، لأنَّ ذلك يؤدِّي به إلى الهلاك في الدنيا والآخرة، ولا غرابة بعد هذا أنْ نُدْرِكَ بأنَّ القرآن الكريم يُعَبِّرُ عن ذلك بألفاظٍ متقاربةِ المعنى من لفظة (**العقل**)، تعظيمًا وتنبيهًا إلى وجوب استعماله في كلِّ شيءٍ، لأنَّه الأداةُ الحقيقيةُ التي يستخلص بها زبدة الرأي والروية، كلفظة: (**التفكُّر**) و(**النَّظَر**) و(**التبصُّر**) و(**التَّدَبُّر**) و(**الاعتبار**) و(**التَّذَكُّر**) و(**العِلْم**) و(**التعقُّل**)[4].

ونخلص بهذا إلى القول أنّ حرية التفكير، كما هي جُزْءٌ مِن عبادة الله تعالى وتوحيده، هِيَ في الوقت نَفْسِهِ وسيلةٌ مِن أهَمِّ الوسائل التي يُمْكِنُنا بها تحقيقُ التفعيل الحضاري في عصرنا الحالي، فهي ضرورة إنسانيةٌ لِاسْتِشْرَافِ الكون ومُرَكَّبَاتِهِ[5]، والكَشْف عن حقائقه وسُنَنِهِ وقوانِينِه.

ونستنتج بذلك أنَّ جوهرَ الإنسان هو العقلُ، إذْ به يَهْتَدِي إلى خالقِ الكَوْنِ، ويُدْرِكُ أسرارَ الخَلْق، وجلالَ الخَالِق، ويَتَعَرَّفَ على سُنَنِ اللهِ في الكون[6].

---

[1] ينظر: التفكير وتنميته في ضوء القرآن الكريم، لـ: عبد الوهاب محمود إبراهيم، بحث مقدم لنيل درجة الماجستير في العلوم الإسلامية، إشراف: د. خالد خليل علوان، أطروحة منشورة بـ: كلية الدراسات العليا في جامعة النجاح الوطنية، نابلس- فلسطين، (2009م)، (ص/23)؛ حرية التفكير في الإسلام وأثرها في البناء الحضاري المعاصر (القرن 19م ـ 20م)، إعداد الطالبة: نفيسة حمودة، (ص/28، 29).

[2] ينظر: إسلامنا، لـ: السيد سابق، دار الفكر، بيروت ـ لبنان، (1398 هـ ـ 1978م)، (ص/17، 19).

[3] ينظر: حرية الرأي في الإسلام، لـ: مصطفى عبد الواحد، دار السلام، القاهرة ـ مصر، ط.1، (1431 هـ ـ 2013م)، (ص/140).

[4] ينظر: التفكير فريضة إسلامية، لـ: عباس محمود العقاد، تحقيق: إبراهيم الصابر، دار التقوى، القاهرة ـ مصر، (1437 هـ ـ 2016م)، (ص/14 ـ 23).

[5] ينظر: التفكير دراسة نفسية تفسيرية، لـ: كاظم الجابري، ومحمد كاهر العامري، دار الشروق، عمان ـ الأردن، ط.1، (2012م)، (ص/38، 39).

[6] ينظر: الفكر الديني وقضايا العصر، لـ: محمود حمدي زقزوق، دار القدس العربي، القاهرة ـ مصر، ط.1، (1437 هـ ـ 2016م)، (ص/140).

المبحث الثالث: علم الكلام وعلاقته بعملية التفعيل الحضاري المعاصر:

ترتبط عملية التفعيل الحضاري في وقتنا المعاصر ارتباطًا عضويًّا لا مَفَرَّ منه بجهود علماء الكلام، سواء المتقدِّمين منهم أو المتأخرين، فهي قضية في غاية الأهمية، فلا تقدُّمَ للبشرية ولا نهوض لها، ولا استقرار لها إلا بما قامت عليه حضارتنا الإسلامية المجيدة، فقد كان لعلمائنا تأثير فعَّالٌ، من خلال تنظيراتهم، ومصنَّفاتهم وتلاميذهم الذين تأثروا بهم، ويرجع ذلك إلى عوامل وأسباب عديدة، منها:

أوَّلًا ـ استغلالهم الثمين للوقت:

من أهمّ أسباب التفعيل الحضاري عند علمائنا الأوائل: استغلالهم للوقت، فقد كان ثمينًا جِدًّا، فلا غرابة أنْ يُنْتِجُوا ذلك الكَمَّ الهائلَ من الكنوز العلمية، ومنه مجالُ بحثنا الكلامي التاريخي، على شاكلة ما فعله سيف الدين الآمدي حين صنَّف كتابه المفيد الموسوم بـ (أبكار الأفكار في أصول الدين)، فهو جهد لم يسبق إليه في زمنه؛ بينما يرجع سَبَبُ ضَيَاعِ أُمَّتِنَا في عصرنا الحالي إلى إِهْدَارِهَا لِعَامِلِ الوقت في هذه العملية، على عكس الدول الغربية التي استغلت وقتها أحسن استغلال في تطوّرها المادي.

ثانيًا ـ التركيز على الجانب التوحيدي في مصنفاتهم ومجالسهم:

يُرَكِّزُ علماءُ الكلام على مسألة توحيد الله تعالى وعبادته وحده لا شريك له، كونها المنطلق الحقيقي في عملية التفعيل الحضاري، فهي المسألة الأمُّ في فكرنا العقدي الكلامي، فـ(**التوحيد**) تفعيل للنسبة، كالتصديق والتكذيب.

فمعنى قولك: (وحدَّتُ اللهَ)، أيْ: نسبتُ إليه الوحدانية، وجعلتُه واحدًا[1]، لأنّ حقيقته إيمان بالله وحده، وتصديق بما جاء به النبي ـ ﷺ ـ من الخبر الدالِّ على أن الله تعالى واحد في ألوهيته لا شريك له.

---

[1] ينظر: العين، لـ: أبي عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري، (ت.170 ه)، تحقيق: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي، الناشر: دار ومكتبة الهلال، عدد الأجزاء: (8)، (د. ت. ن)، (281/3)؛ تهذيب اللغة، لـ: أبي منصور محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، (ت.370 ه)، تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، بيروت ـ لبنان، ط.1، (2001م)، عدد الأجزاء: (8)، (125/5)؛ لسان العرب، لـ: أبي الفضل، جمال الدين محمد بن مكرم بن علي بن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى، (ت.711 ه)، دار صادر، بيروت ـ لبنان، ط.3، (1414 ه)، عدد الأجزاء: (15)، (448/3)؛ معجم اللغة العربية المعاصرة، تأليف: د أحمد مختار عبد الحميد، بمساعدة فريق عمل، (2409/3).

والتصديق بذلك الخبر أنْ ينسبه الإنسان المؤمنُ إلى الصدق ومطابقة الواقع بالقلب واللسان معًا، بمعنى: إفراد المعبود بالعبادة مع اعتقاد وحدته ذاتًا وصفاتًا وأفعالًا، فلا تقبل ذاته الانقسام بوجهٍ، ولا تُشْبِهُ صِفَاتُه صفات المخلوقين، ولا تنفكُّ عن الذات، ولا يدخل أفعاله الاشتراك، فهو الخالق دون مَنْ سِوَاهُ.

وإنَّما سُمِّيَ هذا العلمُ بـ(علم التوحيد)، لأنَّه أشهر مسائله وأشرفها، ويسمى أيضا بـ(علم الكلام)، لأنَّ مباحثه كانت معنونة في كتب القدماء بقولهم: (الكلام في كذا)، أو لأنَّ أشهرَ مواضع الخلاف فيه مسألة كلام الله ـ تعالى ـ حتى جرى ما جرى لأئمة الدين بنزغة الشيطان للمخالفين، ولكون علم التوحيد أصل العلوم وأسُّ النجاة، وسُلَّمُ المعرفة لِلْحَيِّ القيُّوم.

وعلى المؤمن أنْ يُشَمِّرَ عن ساق الجدِّ والاجتهاد، ويدأب في سائر أحواله لِيَنَالَ المراد، ويُبَايِن أهل الفُرْقَة والتفنيد، ويخلع من عنقه ربقة التقليد[1].

وعليه، (التوحيد): تفعيل من الوحدة، وهو إفراد الله تعالى بما يجب له من الربوبية والألوهية والأسماء والصفات.

وهذه الفكرة عبَّر عنها مفكِّرنا الجزائري مالك بن نبي ـ رحمه الله ـ في عصرنا هذا بـ(الفكرة الدينية)، حيث وظَّفها في دراسة ظاهرة الحضارة في قيامها وسقوطها، فهذا العامل مُهِمٌّ في توجيه جُهْدِ الإنسان توجيهًا فعَّالًا، حيثما وُجِدَ.

وهذا المعنى أيضا يشير إليه سيد قطب في كتابه (معالم في الطريق)، حيث يرى أنّ الحضارة الإنسانية ينبغي لها أن تصطبغ بصبغة الله تعالى، وأوّل ذلك هو سيادة الشرع الإلهي، فحين تكون الحاكمية لله وحده تكون هذه الصورة التي يتحرَّر فيها البشر تحرُّرًا كاملًا وحقيقيًّا من العبودية للبشر...، فحضارةُ الإنسان تقتضي قاعدةً أساسيةً مِن التَّحرُّر الحقيقيّ والكامل للإنسان، ومن الكرامة المطلقة لكلّ فَرْدٍ في المجتمع[2].

ثالثا ـ الاعتناء المتواصل بشتَّى أنواع العلوم وتجديدِ تطبيقها واقعيًا:

تاريخيا، كان لعلماء الإسلام، وخاصة علماء الكلام، جُهْدٌ مُعْتَبَرٌ، ودَوْرٌ بَارِزٌ في تفعيل العلوم، بشتَّى أنواعها، والاستفادة منها في حياة الإنسان إيجابيا.

---

[1] ينظر: لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية لشرح الدرة المضية في عقد الفرقة المرضية)، لـ: شمس الدين، أبي العون محمد بن أحمد بن سالم السفاريني الحنبلي، (ت.1188هـ)، مؤسسة الخافقين ومكتبتها، دمشق ـ سوريا، ط.2، (1402 هـ ـ 1982م)، عدد الأجزاء: (2)، (1/56 ـ 57).

[2] ينظر: معالم في الطريق، لـ: سيد قطب، دار الشروق، بيروت ـ لبنان، (د. ت.ط)، (ص/107 ـ 108).

وكان لعلماء أهل السنة والجماعة القسط الأوفر في هذا الشأن، حيث أقاموا مَنْهَجَهُم على أصولٍ كُبْرَى ثابتةٍ، مستقرَّة؛ ونحن في عصرنا الحالي لَسْنَا بحاجةٍ إلى اجتهادات في أصول العلوم وقواعدها العامَّة؛ بِقَدْرِ ما نَحْنُ بحاجةٍ إلى تجديدِ تطبيق تلك الأصول والمبادئ العُلْيَا وأهدافها السامية على مُسْتَجَدَّاتِ زماننا؛ لأنَّ هذا هو مقتضى تفعيل هذا المناهج المعصومة في حياة الناس[1].

رابعا ـ اكتساب المعارف وتوسيع دائرتها:

إنَّ لِعلمِ الكلام دورٌ هامٌّ في اكتساب المعارف الهامة في حياة الإنسان وتوسيع مجال دائرتها، ذلك لأنّه يرتكز على القضايا اليقينية التي يتألَّف منها البرهان، فَبِهَا يُتَوَصَّلُ إلى المعارف النظرية، مثلما احتجّ به سيدنا إبراهيم عليه السلام على إبطال إلهية الكواكب والأصنام، حيث احتجّ بأفولها، بمعنى: غروبها وانتقالها، لأنَّ ذلك تغيّر، وكلّ متغيّرٍ حادث، والحادث ليس بإِلَهٍ، وهذه المعارف كمال في حقّ الإنسان، لأنّ معرفة الله تعالى هي المقصود من هذا العلم، ولا يكون ذلك إلا بالعلم والعمل[2]، فطرق الاستدلال عندهم متنوّعة، وكلُّها تعتمدُ على الدقَّة والبرهان، سواء كانت استدلالًا بالمؤثِّر على الأثر، أو استدلالًا بالأثَر على المؤثِّر، وهذه النظرةُ التوحيديةُ للأشياء هي مما نحتَاجُه في عصرنا في عملية التفعيل الحضاري.

خامسا ـ إدراكهم ويقينهم بثمرات وفوائد علم الكلام:

من فوائد علم الكلام: أنّه يسهل لنا معرفة أثر الإيمان بأسمائه وصفاته، ذلك أنّ الله تعالى هو الخالق المصور، ومن ثمَّ كان خلقه في غاية الإبداع والجمال، فهو الخالق البارئ المصوِّر، واسمه (المصور) على وزن (مُفَعِّل) من الصورة، كما يذكر ذلك الإمام الزجَّاج، يعني فيه (تفعيل)، و(التفعيل) مرادٌ به التكثيرُ، لأنَّ مادة (فَعَّل) تدلُّ على تكرار لِمَا دلَّ عليه الفعل، فهو تعالى مُصَوِّرٌ كل صورة لا على مثالٍ احتذاه، ولا رَسْمٍ ارْتَسَمَهُ، تعالى عن ذلك علوًّا كبيرًا[3].

وهذا الأمر يزيد من رسوخ عقيدة المؤمن في الله تعال، فلا غرابة أن يقول تعالى: ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۝٦ ﴾ [الصافات: 6]، ويقول أيضا: ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ﴾[لقمان: 11].

---

[1] ينظر: دعوة إلى السُّنَّة في تطبيق السُّنَّة منهجًا وأسلوبًا، لـ: عبد الله بن ضيف الله الرحيلي، مكتبة الملك فهد الوطنية ـ المملكة العربية السعودية، عدد الأجزاء: (1)، (ص/20).

[2] ينظر: مختصر نظم الفرائد ومبدي الفوائد في شرح محصِّل المقاصد، لـ: أبي العباس أحمد بن علي المنجور الفاسي، (1/446 ـ 450).

[3] شرح سلم الوصول في علم الأصول، (15/6)، بترقيم الشاملة آليا.

وقال: ﴿ تَنزِيلٌ مِّنَ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ۝٤٢ ﴾ [فصلت: 42]. فقوله: ﴿**تَنزِيلٌ**﴾، على وزن (تفعيل)، من قولك: (فَعَّلَ، يُفَعِّلُ، تَفْعِيلاً)، فهو مُنَزِّلٌ، ﴿**مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ**﴾[1].

فـ(التفعيل) يكون مصدرًا للفعل الماضي الثلاثي المُضَعَّف العَيْن، مِثل: (وَحَّدَ)، (**الحَاءُ**) هنا مُشَدَّدَة حينئذٍ هو ثلاثيٌّ، لكنَّه من حيث عَدِّ الأحرف أربعة أحْرُفٍ، إذَنْ (التوحيد) مصدرٌ للفعل الثلاثيّ المَزِيد بتضعيف عينه، (وَحَّدَ، يُوَحِّدُ، تَوْحِيدًا، فهو موحِّد): إذا جَعلَه وَاحِدًا.

وكذلك لفظة (**التفسير**)، التي استخدمها علماء الكلام كثيرا في كتبهم، كالرازي في (تفسيره الكبير)، والثعالبي في (الجواهر الحسان في تفسير القرآن)، وغيرهما من علماء الإسلام، فهي في حقيقتها على وزن (تفعيل)، من قولك: (فَسَّرَ القرآن، يفسّره، تَفْسِيرًا).

فالتوحيد المراد به المبالغة في إظهار معنى التوحيد، وهذا المعنى في الأصل محلُّه المعقولات، والتفسير تفعيل في المبالغة كَالفَسْرِ، يعني هو إظهار المعنى المعقول[2].

فعلماؤنا المتقدمين والمتأخرين، يدركون جيّدًا مبدأ التفسير للأشياء، لأنَّ لفظ (الفَسْر) الوارد في القرآن الكريم والسنة المطهرة هو في حقيقته إظهارُ المعنى المعقول، لأنَّ متعَلِّقَ التفسير هو المعقولات، يعني: أنَّ إظهارها من حيّز الذِّهْنِ والمعقولات إلى البروز والظهور يسمى تفسيرًا، إن صح التعبير، وعليه فالفَسْرُ عندهم: هو إظهار المعنى المعقول، وحينئذٍ يكون التفسير المراد به المبالغة في هذا الإظهار، لأن الفسر هو الإظهار.

وتبعا لهذا المعنى، جاءت مصنفاتهم مبينة ومفسّرة لكثير من المصطلحات، كما فعله الآمدي في كتابه (المبين)، و(أبكار الأفكار في أصول الدين)، والرازي في كتابه (محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين من العلماء والحكماء والمتكلمين)، وكما فعله الجرجاني في كتابه (التعريفات)، وأبو البقاء الكفوي في (كلياته)، والتهانوي في (التوقيف على مهمات التعاريف)، وفي كتابه (كشاف اصطلاحات العلوم والفنون)، وما أكثر ما صنّفه العلماء في هذا الشأن، في شتى التخصصات.

كان الهدف منها: تفعيل مبادئ العلوم ومعاني مصطلحاتها في الحياة الواقعية للناس، ليلا ونهارا، حضرا وسفرا.

---

[1] شرح سلم الوصول في علم الأصول، (11/12)، بترقيم الشاملة آليا.

[2] للأمانة العلمية التاريخية أنّ رجالات فرقة المعتزلة لعبوا دورًا معتبرًا في نشر الإسلام بين الناس من خلال وجهة نظرهم، فقد حفظت لنا بعض كتب التاريخ والتراجم والسير مناظراتهم ومجادلاتهم القوية لفرقة (السُّمَنِيَّة) وغيرها، وإقناعهم بالإسلام.

ـ ومن الدوافع الحقيقية التي جعلت علماء الكلام يبدعون في مصنفاتهم، ويحلِّلُون المسائل ويناقشونها بمنطق العقل والنقل معا، ظاهرة التقليد التي كانت سائدة في الجاهلية بين العرب وغيرهم من شعوب الأرض، وهذه من أهمّ الميزات التي اشتهروا بها، لأنّهم يدركون أنّ الإسلام يدعو إلى العلم والاجتهاد، بهدف رفع الإنسان إلى درجة الكمال جسدًا وروحًا.

وأما ما يفعله الجَهَلَةُ المقلِّدُون في كلِّ زمانٍ ما هو إلَّا أمرٌ مُحْدَثٌ مِن تِلْقَاء أنفسهم، وليس له أصولًا مُسْتَمَدَة من شريعةٍ سابقةٍ، مُنَزَّلَةٍ من ربِّ العالمين، وإنما هي أفكار وأهواء وضلالات مَبْنِيَّةٌ على التقليد المَقِيتِ[1].

ولهذا لا نستغرب كيف انصبَّ اهتمام علمائنا ببيان معاني مفردات الألفاظ وتتبُّع غريبها، خاصة ما يتعلق بعلوم القرآن وتفسيره، لأنّه المنبع الحقيقي لمادة علم الكلام، الذي يشكِّل الأداة الفعالة في مجادلة المنكرين وإقناعهم بمنطق العقل والنقل، حتى يؤتي الجدال ثمرته وتبدو فوائده.

ورأينا كيف كان المسلمون منذ بداية إلى الإسلام وانتشاره في شرق الأرض وغربها، وشمالها وجنوبها، بناء على أنّ المسلم يبني إيمانه على مبدأ أساسي في هذا الدين، ألا وهو التوحيد.

فـ(**التوحيد**) في نظر المسلم (**تَفْعِيل**)، بمعنى: أنه يعتقد بقلبه تلك النسبة المتعلِّقة به، وهي الإشارةُ إلى وحدانية الله تعالى في الكون، بمجموع الأبواب الثلاثة المشهورة في علم الكلام، الشاملة لِبَابِ الألوهية والنبوَّة والغيبيات.

وقد تنبَّه علماء الكلام، خاصة أهل السنة والجماعة، إلى فكرة (التفعيل)، وأهميتها في بنائهم الكلامي، وهم بصدد الردّ على المشركين من العرب وغيرهم، في اتخاذهم الأصنام والأوثان، اعتقادا منهم أنها تقرّبهم إلى الله زلفى، كما حكى تعالى عنهم بقوله تعالى:

---

[1] **(التقليد) لغة:** تفعيل من قَلَّدَ الشَّيْءُ، وهو في اللغة المحاكاة، قلده يعني: حاكاه ومائله وشابهه، يقال: قَلَّدَهُ الْقِلادة جعلها في عنقه، هذا الأصل فيه مأخوذ من القلادة؛ **واصطلاحا:** « هو قبول قول الغير بلا دليل وحجة »؛ والتقليد هو القاعدة الكبرى لعموم الكفار والمشركين في كل زمان وفي كل مكان، فهم أقاموا دينهم وشركهم على التقليد، كما حكى قال تعالى عنهم بقوله: ﴿**وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آَبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آَثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ**﴾ [الزخرف: 23]، وكذا قوله تعالى: ﴿**أَمْ آَتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ * بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آَبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آَثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ * وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آَبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آَثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ**﴾ [الزخرف: 21 - 23]؛ فليس لهم حجة إلا أنهم وجدوا آباءهم وأجدادهم وأسلافهم الماضون على ملَّة وعلى دينٍ فاتبعوهم، فأنكر الله تعالى على المشركين في عبادتهم غير الله بلا برهان ولا دليل ولا حجة؛ لمزيد من المعرفة والتفصيل ينظر: مفاتيح الغيب، لـ: أبي عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري، المتوفى سنة (606 ه)، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت ـ لبنان، الطبعة الثالثة، (1420 ه)، (102/4).

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر: 3]؛ فهم كما يزعمون أنهم يريدون شفاعتهم عنده، دون إدراك حقيقي منهم لمعنى (القربى) و(الشفاعة)[1].

ومن الأصول المهمَّة التي يبني عليها علماء الكلام كلامهم: اعتقادهم أنَّ القرآن الكريم حجَّة على كلِّ مبطلٍ إلى يوم القيامة، فلا غرابة إذن أن يستعينوا بآيات القرآن الكريم في هذا الشأن، بحكم كونها مؤصّلة لهذه الحقائق، كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا ٣٣ ﴾ [الفرقان: 33]، أيْ: ولا يقولون قولًا يعارضون به الحقَّ إلَّا أجبناهم بما هو الحقُّ في نفس الأمر وأَبْيَن وأوضح وأفصح من مقالته؛ وعن ابن عباس رضي الله تعالى: ﴿**وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ**﴾، أي: بما يلتمسون به عيب القرآن والرسول، ﴿**إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ**﴾، أيْ: إلَّا نزل جبريل من الله تعالى بجوابهم[2].

سادسًا ـ قوّة أدلَّة المتكلِّمين في دفع الشبهات والأباطيل عقلًا ونقلًا:

كلُّ مَن يُطَالِعُ كتبَ علماء الكلام بإنصافٍ وتدقيقٍ يلاحظ قوَّة أدلَّتِهم العقلية والنقلية في ردِّ شبهات وأباطيل الخصوم، سواء كانوا يهودًا أو نصارى أو مجوسا أو مشركي العرب أو غيرهم، خصوصا في اعتقاداتهم الباطلة المخالفة للتوحيد الخالص.

وهذا ما نلاحظه ـ مثلًا ـ في رَدِّهِمْ على المنجِّمِين المعتقدين أنَّ للأحوال الفلكية تأثيرٌ على الحوادث الأرضية[3]، وهو من أنواع الشرك الباطل الذين أبطلوه.

---

[1] قال الراغب: « القرب والبعد يتقابلان يقال: (قَرُبْتُ منه أَقْرُبُ وَقَرَّبْتُهُ أُقَرِّبُهُ قُرْبًا وَقُرْبَانًا)، لأنَّ التقريب (تَفْعِيل)، والأصل أنه من (قَرَّبَ، يُقَرِّبُ، تَقْرِيبًا)، وأما (القُرْبُ) فهو من (قَرُبَ)، قال: ويقال للحَظْوَةِ القُرْبَة المنزلة والمكانة، كقوله: ﴿**قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللهِ**﴾، يعني: مكانة، ﴿**أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ**﴾ [التوبة: 99] يعني: منزلة وحظوة ومكانة، ﴿**تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى**﴾ [سبأ: 37]، و(نريد شفاعتهم عنده) يعني: عند الله تعالى»؛ ينظر: المفردات في غريب القرآن، لـ: أبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، (ت.502 هـ)، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، الناشر: دار القلم، الدار الشامية، دمشق، بيروت ـ لبنان، ط.1، (1412 هـ)، عددا الأجزاء: (1)، (ص/663 ـ 664).

[2] ينظر: تفسير القرآن العظيم، لـ: أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي، (ت. 774 هـ)، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، الناشر: دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون، بيروت ـ لبنان، ط.1، (1419 هـ)، (99/6).

[3] يستدلّ هؤلاء المنجِّمُون بسير النجوم وطلوعها وأفولها على الأمور المستقبلة من الحوادث، كهبوب الرياح، ونزول الأمطار، وحدوث الأمراض، وقيام الحروب، وما أشبه ذلك مما يحدث في الأرض، فكلُّ ما يُضَافُ إلى النجوم مِن أنَّ لها تأثيرًا في الحوادث، وفي النفوس، والسعود، والأرزاق، والإفقار، أو غير ذلك فهو من الشرك الباطل؛ ومن هذا الشرك: قولهم: إنَّ الإنسان إذا ولد في النجم الفلاني أو في الفلك الفلاني يكون له كذا وكذا وكذا، وإذا سافر في النجم الفلاني يكون له كذا، ويحصل له كذا، وإذا تزوج بالنجم الفلاني يحصل له كذا، وإذا عقد صفقة من تجارة أو غيرها في النجم الفلاني يحصل له ربح أو يحصل له خسارة أو ما أشبه ذلك، وهذا لا يزال مستعملاً إلى اليوم؛ وعقيدتنا الإسلامية الصحيحة تأبى أن يكون للنجوم تصرُّفٌ أو تأثيرٌ، وإنما هي مدبَّرة مسخَّرَة، تسير بأمر الله الواحد القهار جلَّ وعلا.

ومن أمثلة ذلك: الاعتقاد الراسخ في أنَّ ثواب أهل الجنَّة وعذاب أهل النار دائمٌ، لا نهاية له، لأنَّ دوامَ ذلك ممكنٌ بدوام خلق أمثاله، وإذا كان الدوامُ ممكنًا، وقد أخبر الصادق المصدوق بنصوص كثيرة مصرّحة بالخلود الدائم في النعيم المقيم للمؤمنين، والعذاب الأليم للكافرين[1]، وهذا الاعتقاد من القضايا التي تُسهِّل على المؤمن رؤيةَ حقيقة الدنيا وهوانها وسرعة زوالها، وهو ما يُجَلِّي له الحكمةَ من خلقه، وأنَّه مؤهَّلٌ للعيش في دار الخلود في الآخرة.

وهذا الأمر يسهِّل عليه تفعيل كلّ الأشياء في الدنيا وتوظيفها توظيفا إيجابيًّا، على عكس الكافر والمنافق الذي لا يرى أثر ذلك عليه في حياته، والعياذ بالله.

ويمكننا رؤية هذا التوحيد مفَعَّلًا في أرض من الواقع من خلال قصص الأنبياء والرسل، فقد حكى لنا ربنا عز وجل في القرآن الكريم قصة سيدنا سليمان ـ عليه السلام ـ، وكيف نشر التوحيد في الأرض، حيث دعا بلقيس ـ ملكة سبأ ـ إلى الإسلام، جامعا بين صفتي القوة والرحمة، بهدف الحفاظ على قوة دولته وحيويتها وسيادة قوانينها وشعبها، وضرب بذلك نموذجا حقيقيًّا للحاكم الراشد ذو الشخصية القوية، في تعبيد الخلق لربّهم سبحانه وتعالى، من هنا قرَّر الباحث سعد صدارة هذا المعنى بقوله: « ولن تكون الدولة قويَّة إلَّا بقوَّة رجالها، وعلى رأسهم حاكمها، الذي يرهب الفاسدين في الداخل قبل الخارج، فلا يطمعون في إشاعة الفساد، ولا إحداث فتن واضطرابات داخل الدولة وزعزعة أمنها واستقرارها، ليكون صارما، وحازما، وحكيما، مقتدرا للحفاظ على أمن الوطن وثرواته وشعبه »[2].

سابعا ـ تلاقح أفكار أهل المشرق والمغرب في خدمة علم الكلام:

قوة عملية التفعيل الحضاري تكمن في الفكرة الناجمة عن تلاقح أفكار أهل المشرق والمغرب في خدمة علم الكلام، فلا غرابة أن نرى علماء الغرب العربي الإسلامي يشرحون كتب علماء المشرق، والعكس صحيح، أو يختصرون كثيرا من مصنفاتهم، وينظمون معلوماتهم في شكل أرجاز، وهكذا، مثلما فعل الإمام أبي العباس أحمد ابن زكري التلمساني حين شرح عقيدة ابن الحاجب المالكي، أو مثلما فعل أبي زكريا يحيى الإدريسي حين شرح كتاب (الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد)، حيث أبدع كلاهما في هذه الشروح؛ والأمثلة في هذا أكثر من أنْ تُذْكَرَ هُنَا.

---

[1] ينظر: بغية الطالب في شرح عقيدة ابن الحاجب، لـ: أبي العباس أحمد بن زكري التلمساني، (ص/347).

[2] التنمية الإنسانية في القرآن الكريم، لـ: سعد صدارة، (ص/228).

وخلَّد لنا علماؤنا ثروة كلامية ضخمة، دلَّت على إمكانياتهم الكبيرة التي وظّفوها عبر العصور، ولا يزالون إلى يومنا هذا في خدمة ديننا ونشره بين الناس، شرقا وغربا، شمالًا وجنوبا.

وفي هذا السياق الهام، ينبغي التنويه بما قامت به المراكز البحثية في الجامعات ودور النشر المختصرة وغير مما له علاقة بنشر العلوم الدينية والدنيوية، وما سخَّرَتْهُ من الإمكانيَّات والوسائل التقنية والعلمية المتطورة التي تحت تصرّفها أو الطّاقات الكفؤة المؤطِّرة لهذا المجال والتي يمكن الاستفادة من خبرتها في إحياء العلوم المفيدة بعد نشر تلك المخطوطات المحققة وغيرها، وتوظيفها بكلّ الإمكانيّات في مجابهة سلسلة هجمات الأعداء على أمتنا العربية والإسلامية.

المبحث الرابع: وسائل أعداء الإسلام في تخريب العالم العربي والإسلامي:

تفطَّن علماء الكلام منذ القديم إلى أهمية مناظرة أهل الأهواء والبدع، وحلّ الشكوك والشبهات الواردة مِن جِهَتِهِم، وإقامة البراهين النَّاصِعَة والحجج القوية عليهم، وأنَّ ذلك مِن فُرُوضِ الكفايات، دفعًا لِشُرُورِهِم عَن الأُمَّة.

وأنَّ ذلك القيام بِدَفْعِ الشُّبُهَاتِ الواردة مِن جِهَتِهِم مَنُوطٌ بِمَنْ توفَّرَتْ فِيهِم الشُّرُوطُ المطلوبةُ، فَلَا يتعرّض لها إلَّا مَن طالَعَ علومَ الشريعة، وفَهِمَ مقاصِدَها وأحكَامَها، وحَفِظَ الكثيرَ منها، وأخَذَ ذلك عَن الأئِمَّة الرَّاسِخِينَ في العلم، فَاسْتَوْضَحَهُمْ فيها، ورَاجَعَهُم في أَلْفَاظِهَا وأغْرَاضِهَا؛ وفي ذلك يقول الإمام ابن زكري التلمساني ـ رحمه الله ـ: « فَمَنْ منَحَهُ اللهُ تعالى قوَّة النَّظَر، بِحصول مَلَكَةٍ في العلوم العقليَّة والنقليَّة، يَقْتَدِرُ بها على إقامة الحجج والبراهين، ويدفع بها ما يَرِدُ عليه من الشُّكُوكِ وشُبُهَاتِ المبْطِلِينَ، وَجَبَ عليه القيامُ بِنُصْرَةِ دينِ رَبِّ العالمين، وتَعيَّنَ عليه إنْ لَمْ يَكُنْ ثمَّ غَيْرُهُ مِن المحصِّلِين، وإلَّا فالخِطَابُ متعلِّقٌ بالجميع، فلا يُسْقِطُه إلَّا قيامُ مَن نَظَرَ أنّ الدِّينَ بِقيَامِه مَنِيعٌ، ومَن لم تَحْصُلْ لهُ تلك الملَكَة، فلا يُلْقِي بِنفْسِه إلى التَّهْلُكَة »[1].

أمَّا في عصرنا، فقد تسارعت هجومات الأعداء على بلادنا العربية والإسلامية بشكلٍ ملحوظٍ، حيث شهدت تَغَيُّرًا سِلْبِيًّا على مستوياتٍ عِدَّةٍ، اجتماعيًّا وفِكْرِيًّا وثقافيًّا، وبأساليبَ عصريَّةٍ جديدةٍ ومُبْتَكَرَةٍ ومتَنَوِّعَة، ويمكنني حَصْرُها في بعض النِّقَاط الأساسية، وهي:

[1] ينظر: بغية الطالب في شرح عقيدة ابن الحاجب، (ص/396).

أوّلًا ـ (التغريب)[1]: استطاع الغرب المعادي للإسلام، خصوصا في عصرنا الحالي، أنْ يُكَوّنَ جيلًا مغتربا، يأخذ بنمط العيش الغربي، في كلّ شيءٍ، والأخطر من هذا هو جعلهم نسخة طبق الأصل عنهم أو أسوأ من ذلك، فلا يبالون في أقوالهم ولا أفعالهم هل هي حلالٌ أو حرامٌ، وهَلْ هي تُوَافِقُ شَرْعَنَا ودِينَنَا الإسلامي أو تخالفه، دون الرجوع إلى أحكامِ دِنِينَا وشرائعه، إلَّا مَن رحمَ اللهُ منهم، وإلى الله تعالى المشتكى.

ثانيا ـ (التهويد)[2]: وهو جعل الناس على دين اليهود، بمعنى: إدخالهم في دين اليهود وعلى شاكلتهم في العبادة وطريقة العيش، وغيرها.

ثالثا ـ (التنصير)[3]: وهو سياسة ممنهجة من قبل الدول الغربية، خصوصا الدول الكبرى، كفرنسا وبريطانيا وإيطاليا وغيرها، والدليل على ذلك: تلك المحاولات الفاشلة من الاحتلال الفرنسي للجزائريين، فقد فشلت سياسته الخبيثة، على الرغم من المحاولات المتكرّرة عبر أزيد من قرنٍ وربع قرنٍ، وذلك بفضل ما قدمه علماء هذا الشأن من إرشاد وتوجيه وتعليم ودعوة، مثلما كان هدف العلامة ابن باديس من مصنّفه في العقيدة الإسلامية، التي ينبغي حسب رأيه أن تبنى على الاجتهاد، وليس على التقليد، فنراه قد حارب كل مظاهر التبعية، لأنّ علم الكلام يبني حقائقه على النظر والاستدلال، لا على التقليد، ومن آثاره: تحقيق الاستقلال السياسي، ونرجو أن يتحقق الاستقلال الاقتصادي والفكري الثقافي.

---

[1] **(التغريب)**: مصدر (تفعيل)، من قولك: (غَرَّب الشّخصُ، يغرّب، تغريبًا، فهو مُغرّب): إذا ذهب ناحية المغرب، والمفعول (مُغرَّبٌ)، للمتعدّي؛ و(غرَّب فلانٌ في الأرض): أمعن فيها وسافر بعيدًا؛ و(غرَّب شخصًا عن بلاده): أبعدَ عنه، و(غرَّب العادات والأخلاق)، وهو مشتق من (الغرب)، أي: الدول الغربية الأوربية والأمريكية، ومن في حكمها؛ ينظر: معجم اللغة العربية المعاصرة، لـ: أحمد مختار عبد الحميد عمر، بمساعدة فريق عمل، (1601/2)، برقم: (3541)؛ **واصطلاحا:** يراد بـ(التغريب): « تغييرُ قِيَمُ الأمّة ومُثُلُهَا، أيْ: تغييرُ عقيدتها وثقافتها وأخلاقها، وجعلها شاذَّة غريبة، وإبعاد المسلمين عن دينهم باسم المدنية، أو التطور أو التقدُّم، وإحلال ما يقابل ذلك في الحضارة الغربية »؛ ينظر: أثر الإيمان في تحصين الأمة الإسلامية ضد الأفكار الهدامة، (173/1).

[2] **(التهويد) لغة:** السكون والهدوء، وسمي اليهود يهودا إما من قوله عز وجل: ﴿**إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ**﴾ [الأعراف: 156]، أيْ: رجعنا وتُبْنَا، وإمَّا من التهويد، أيْ: السكون؛ ويمكن أن يكونوا سُمُّوا بالمصدر، من (هاد، يهود، هَوْدًا)، و(هَوَّدَ الإنسانُ ولدَه): إذا جعله على دِينِ اليهود ؛ وفي التنزيل قوله تعالى: ﴿**وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى**﴾ [البقرة: 135]؛ ينظر: جمهرة اللغة، (689/2)؛ شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم، (7007/10).

[3] **(التنصير) لغة:** جعل الشيء نصرانيا، مشتقٌّ من قولك: (نصَّره، يُنَصِّرُهُ، تنصيرًا)، فهو (مُنصِّرٌ)، والمفعول (مُنَصَّرٌ): إذا أدخله في دين النصارى، وإليه الإشارة في كلام النبي ـ ﷺ ـ : « **أو يُنَصِّرَانِهِ...** »، الحديث؛ ومن أركان دينهم: المعموديَّة، وهي آية التَّنصير عند النَّصارى، وهي: أنْ يُغسَل الطفل أو البالغ بالماء مع تلاوةِ القِسِّيسِ لِفِقَرٍ معيَّنة من الإنجيل، فيقال بعدها: (غَسَلَهُ بماءِ المعموديَّة)؛ ينظر: شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم، (6627/10)؛ معجم اللغة العربية المعاصرة، (1551/2)، برقم: (3452)؛ وكذا (2220/3)، برقم: (5137)؛ المعجم الوسيط، (626/2).

رابعا ـ (التمجيس)[1]: ومعناه: إحياء مذاهب المجوس وعاداتهم القديمة المخالفة لأحكام دين الإسلام وشرائعه وتعاليمه، ومحاولة نشرها بين الناس، كالاعتقاد في وجود إلهين اثنين: أحَدُهُما يُمثِّلُ إلَهَ النُّور، وهو مصدر كُلِّ الخيراتِ والمسرَّات، والثاني إلَهَ الظَّلَام، وهو مصدر كلِّ الشُّرُور والمضرَّات، ولا تزال بعض ملامحه وأفكاره متداولة بين الناس إلى يومنا هذا، خصوصا في دول آسيا، كـ: إيران وتلك الدول المجاورة لها.

خامسا ـ (التجهيل)[2]: التجهيل من أخطر السياسات التي انتهجتها دول الاحتلال في فترات سابقة، ولا تزال سارية المفعول إلى يومنا هذا، لأنَّ بها يمكنهم السيطرة على الشعوب فكريا وثقافيا، وسياسيا واقتصاديا، ومن هنا رأينا ولا نزال نرى كيف ازدهرت مظاهر الوثنية، من عبادة القبور والحج إلى المشاهد، وممارسات الشعوذة والسحر التي استحوذت على كثير ممن لديهم نزعة إلى التدين في كثير من البلاد الإسلامية.

وما هذه المظاهر وغيرها إلا شاهدا حقيقيا على تأخّرنا في الركب الحضاري، على الرغم من أننا نمتلك أدواته التي تنهض بنا، ولكن مع الأسف لم ندرك كيفية استعمالها استراتيجيًّا.

سادسا ـ (التخنيث[3] **والاسترجال**[4]**)**: هذه سياسة خبيثة ملعونة، تترأَّسُها دوائرُ إباحية غربية، بهدف إفساد شبابنا الذين هم ثروة البلد الحقيقية، ومستقبلها الزاهر، لذلك حاولوا، ولا يزلون بكلِّ ما يستطيعون، من أجل إهلاكه بأنواع من المفسدات، كان على رأسها

---

[1] هو من قولك: (مجَّسَهُ، يُمَجِّسُه، تمجيسًا): إذا جعله على دين المجوس، مقتبس من كلام النبي ـ ﷺ ـ: « **أو يُمَجِّسَانِهِ...** »، الحديث أخرجه البخاري في: صحيحه ـ كتاب الجنائز، باب: باب إذا أسلم الصبي فمات، هل يصلى عليه، وهل يعرض على الصبي الإسلام، (95/2)، برقم: (1358)، عن أبي هريرة ﷺ ـ ولفظه بتمامه: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: « **مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ، كَمَا تُنْتَجُ البَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ، هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ** »، ثُمَّ يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ: ﴿**فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا...**﴾ الآية [الروم: 30] ».

[2] **(التجهيل) لغة:** جعل الإنسان جاهلًا، مشتقٌّ من (الجهل)، الذي هو ضدُّ (العلم)، وقد (جهل الاحتلال الشعب، يجهَلُه، جَهْلًا، وتجهيلًا، فهو جاهلٌ): إذا جعله جاهلًا ونسبه إلى الجهل، و(تجاهل): أَرَى مِن نَفْسِه ذلك وليس به؛ و(اسْتَجْهَلَهُ): عَدَّهُ جاهلًا واستخفه أيضا؛ و(المَجْهَلَة): الأمرُ الَّذِي يَحْمِلُ على الجهل، ومنه قولهم: الولد مجهلةٌ، و(المجهل): المفازة لا أعلام فيها؛ ينظر: شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم، (1205/2)؛ مختار الصحاح، (ص/63).

[3] **(التخنيث)**: جعل الرجل كالخنثى، من قولك: (خنَّثَ فلانًا، يُخنِّثه، تخنيثًا، فهو مخنِّث): إذا صَيَّرَهُ خَنِثًا، وأظهره بمظهر النساء، والمفعول (مخنَّث)، و(خنَّث كلامَه): أَلانَهُ تَشَبُّهًا بكلامِ النِّساء، ويُخنِّث حديثَه تملُّقًا وتذلُّلاً؛ و(خنِث الشَّابُّ): استرخى وَلَانَ، وتَثَنَّى وتَكَسَّرَ كالنِّساء، فهو على صورة الرجال وأحوال النساء؛ ينظر: معجم اللغة العربية المعاصرة، لـ: أحمد مختار عبد الحميد عمر، بمساعدة فريق عمل، (700/1)، برقم: (1683)، مادة (خ. ن. ث).

[4] **(الاسترجال)**: جعل المرأة كالرجل، من قولك: (استرجَّلتِ المرأةُ، تسترجِل، اسْتِرْجَالًا، فهي مسترجلة): و(استرجلت المرأة): إذا تَشَبَّهَتْ بالرَّجُلِ، وإليه أشار النبي ـ ﷺ ـ بقوله: « **لَعَنَ اللهُ المُتَرَجِّلاَتِ مِنَ النِّسَاءِ** »؛ ينظر: معجم اللغة العربية المعاصرة، لـ: أحمد مختار عبد الحميد عمر، بمساعدة فريق عمل، (2/ 864)، برقم: ().

المسكرات، وكلِّ أنواع الحشائش الملعونة، وهي من أعظم المنكرات، بل هي شَرٌّ من أنواع الشراب المسْكِر، فإنها مع أنها تسكر آكلها حتى يبقى مصطولا، فإنها مع ذلك توَرِّثُه التخنيث والديوثة، وتفسد المزاج، فتجعل الكبير كالسفنجة، وتوجب كثرة الأكل، وتوَرِّثُ الجنون، بل كثيرٌ من الناس صار مجنونًا بسبب أكلها[1].

وفي عصرنا ظهرت كثيرا من مظاهر هذا التخنيث والترجيل، سواء في شكل اللباس، أو تصفيف الشعر، أو في نوع الكلام أو غيره، وأصبح له منظمات تطالب بحقوق هؤلاء الطرفين، والعياذ بالله تعالى، حتى وصل الأمر ببعضهم إلى المطالبة بتقنين القوانين في شأنهما، وهو ما يخالف أحكام الشرع الحنيف، نسأل الله السلامة والعافية.

سابعا ـ (التَّجْرِيءُ على انتهاك أحكام الشرع ومخالفة القوانين السارية)[2]: يشهد عالمنا العربي والإسلامي، ومنه بلدنا الجزائر، حركات غريبة على كثير من الأصعدة، منها ما يتعلق بتصرّف الإنسان فرديا، ومنه ما يتعلق به جماعيا، فعلى المستوى الفردي، يعرف الفرد جرأة محالفة لما ألِفَهُ الناسُ مِن قَبْلُ، سواء كان في اللباس، أو تصفيف الشعر، أو لبس الذهب والحرير، أو أسلوب الغناء، أو القيام بأفعالٍ مخلَّة بالآداب العامَّة، مِن شرب المسكرات والخمور ـ والعياذ بالله تعالى ـ، وهذا البعد عن أحكام ديننا الحنيف جرّأ العديد من الناس على انتهاك حرمات الله تعالى والجهر بها علنا، بل والتصريح بما يتعرض وأحكام الشرع وتقاليد المجتمع وأعرافه وأخلاقه التي ألفلها الآباء والأجداد.

ثامنا ـ (افتعال النزاعات المذهبية والعرقية المقيتة): وهو أمرٌ مُدَبَّرٌ من جهاتٍ مشبوهةٍ لا تُحِبُّ لِبُلْدَانِنَا الأمنَ والأمانَ والاستقرار، كما حدث في سنوات ماضية، في قلب صحرائنا الجزائرية بين المالكية وإخوتنا الإباضية، ولولا تدخّل العقلاء لحماية أفراد شعبنا[3].

---

[1] ينظر: مجلة البحوث الإسلامية، مجلة دورية تصدر عن الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، عدد الأجزاء: (88 جزءا)، (49/12).

[2] (**التَّجْرِيءُ**): التشجيع على مخالفة الشيء الأصيل، من قولك: (تجرَّأَ الرجل على الحرام، يتجرَّأ، تجرُّؤًا، فهو مُتجرِّئٌ): إذا تشجَّع الشَّخصُ وتجاسَر على ارتكابه دون خوف أو وجل من الله تعالى، و(تجرّأ على مخالفة القانون): إذا خالفَ العملَ به؛ ينظر: معجم اللغة العربية المعاصرة، لـ: أحمد مختار عبد الحميد عمر، بمساعدة فريق عمل، (356/1)، برقم: (1141).

[3] أكرمني الله تعالى في هذا الصدد بتصنيف كتابٍ، سَمَّيْتُهُ: (**إصلاح ذات البين، حقيقة شرعية وضرورة اجتماعية**)، كان الهدف منه رأب الصدع ودفع الضرر، خاصة في هذا الشأن، ولعله يصبح مرجعًا هامًّا في هذا الباب؛ وقد طبع حديثا بدار لمسة.

ومنها افتعال النزعات العرقية، مثلما يحاوله أعداء الإسلام في الجزائر بمحاولة التفريق بين عناصر الشعب المكوّنَة له، كما حدث مؤَخَّرًا عند مقتل جمال بن اسماعيل في منطقة الأربعاء ناث ايراثن بمدينة تيزي وزو، محاولة من أعداء البلد والإسلام التفريق بين عناصر الشعب الواحد، وهيهات هيهات أن يصلوا إلى مبتغاهم الدنيء.

تاسعا ـ (افتعال الحروب العسكرية والأزمات البيئية وغيرها): وهذا أمر ملاحظ منذ فترة، الهدف منه إشغال العالم العربي بقضايا مفتعلة، ليست من صلب اهتمامه وتطلّعاته، بل هي مما يؤخِّرُ تطوَّرَهُ التقني وتقدُّمَه العلمي المنتظر منه، والوصول برَكْبِهِ الحضاري.

وكلّ هذا الخطر الدَّاهِم، تترأَّسُه مؤسَّساتٍ غربية مشبوهة، خاصَّة الاستشراقية منها، إذْ هَدَفُهَا التنصيرُ وغيره، وِفْق الأسلوب الغربي الجديد، الذي أصبح يَتِمُّ ـ مع الأسف الشديد ـ في بعض الأحيان على أيدي بعض المسلمين أنفسهم، من تلاميذ هؤلاء المستشرقين الذي تأثروا بهم، ويساندهم في تنفيذ هذا المخطط بعض الحكام من المسلمين[1].

ومع الأسف الشديد أصبحنا نرى على مستوى القنوات الإعلامية مِنْ بَنِي جِلْدَتِنَا مَن يَتكلَّم باسم هؤلاء المنَصِّرِينَ والمهَوِّدِينَ وغيرهم، بل وتَنَصَّرَ وتَهَوَّدَ بعضُهُم، بعدما دَرَسُوا في مدَارِسِهِم، أو ألجأتهم الحاجة أو الإعجاب إلى اتِّبَاع ديانتهم.

كما انتشرت فيهم كثير من الأفكار الكافرة، كـ(الشيوعية) و(العلمانية)، أو (الحداثة) بمعناها السلبي، وغيرها من الفلسفات الضَّالَّة.

وقد أثمرت جهود هؤلاء المنصرين، إذ تنصَّر عددٌ من أبناء المسلمين الذي درسوا عندهم، وهو ما ينذر بخطورة الأمر، لأنّ مستوى الجهل في الأمَّة مرتفع بشكل رهيب، وبكلّ معانيه.

من هنا ندرك سِرَّ قول علماء الكلام الذين قرَّروا وجوب القصد إلى النظر ووجوب المعرفة[2]، دفعًا منهم لوقوع الأمَّة في بَرَاثِنِ الجهل والتقليد الذي أوْدَى بالأُمَمِ السابقة إلى الهلاك والدَّمَار، ومحاولة منهم في الوقت نفسه تحسيس الأمَّة بما أنيطت به من النهوض بأفرادها نحو الكمال في كلّ شيءٍ، وتفعيلُ هذا الأمر كان حقيقة بفضل هؤلاء الأجلاء، حيث استخدموا أهمَّ الأساليب الكلامية في الإقناع والمحاورة والجدال، منها: برهان الخلف، وعملية السبر والتقسيم، ودليل التمانع، ودليل العلة الغائية، وضرب الأمثلة الحسية لتقريب المعاني إلى الأذهان، وغيرها كثيرٌ جدًّا.

---

[1] ينظر: حاضر العالم الإسلامي وقضاياه المعاصرة، (ص/165)؛ أثر الإيمان في تحصين الأمة الإسلامية ضد الأفكار الهدامة، (173/1).

[2] ينظر: بغية الطالب في شرح عقيدة ابن الحاجب، (ص/108).

فمثلا ـ تميّز علماء الكلام بقوة الأدلة العقلية في تقرير المسائل العقدية وردّ شبهات الخصوم، فعندهم أنَّ الله تعالى واجب الوجود، فهو تعالى أزليٌّ قديم، لا أوَّلَ لوجوده، فيجب أن يكون باقيًا، فلا رتبة بين القِدَم الحدوث، ذلك لأنّ الشيء إما أن يكون قديما، وإما أن يكون حادثا، وحقيقة الحدوث ما له أوّلٌ، والقدمُ ما لا أوّلَ لهُ، وهو سلب ما وُجِدَ للحادث من الأوّلية.

وخلص علماؤنا منها إلى أنّ أنواع التركيب كلُّها مستحيلةٌ على اللهِ تعالى، فهو تعالى فاعلٌ بالاختيار، والفاعل بالاختيار يستحيلُ عليه التركيبُ، وطبيعيٌّ بَعْدَ ذلك أنْ يستخدموا هذا المنهجَ العلميَّ الدقيقَ في الرَّدِّ على النصارى وبيانِ بُطْلَانِ معتقدهم في الإلَه، فَهُمْ يعتقدون أنَّ معبُودَهُم جوهرٌ له ثلاثة أقانيم: (**أقنوم الوجود**)، ويعبّرون عنه بـ(**الآب**)، و(**أقنوم العلم**)، ويعبّرون عنه بـ(**الابن**)، و(**أقنوم الحياة**)، ويعبّرون عنه بـ(**روح القدس**)، فقالوا تَبَعًا لذلك: اسم الأب والابن وروح القدس إلهٌ واحدٌ، وهو عينُ الضلال الذين أشار إليه ربنا في آخر سورة الفاتحة.

وقد طالبهم علماؤنا في دليل الحصر؟!، فلم يجد النصارى جوابًا، ذلك لأنَّ الخلق والإبداع لا يتأتّى إلَّا بها، فقال المتكلمون لهم: والقدرة والإرادة لا يتأتّى الخَلْقُ إلَّا بهما، فاحكموا بأنّ الأقانيم خمسة؟![1].

وعليه، فالتركيب يستلزم التجزئة، وهي على الله تعالى محالٌ، فثبت استحالة التركيب عليه، لأنّ استحالة التركيب تستلزم استحالة التجزئة عليه تعالى.

ومن هنا ندرك أنَّ عِلْمَ الكلامِ واستخدام أساليبه الإقناعية وطُرُقِهِ الاستدلالية وأدلَّتِه العقلية والسمعية كانت قوية فعَّالة في إدخال الكثير من الناس عبر القرون في الإسلام.

ومن الأمثلة التي استخدمها علماء الكلام: بيان فوائد بعثة الأنبياء والرسل ـ عليهم الصلاة والسلام، حيث قسموا الأشياء قسمان[2]:

1 ـ منها ما يستقلُّ العقلُ بإدراكه؛ 2 ـ ومنها ما لا يستقلُّ العقل بإدراكه.

فأمَّا **الأوَّل: وهو ما يستقلُّ العقلُ بإدراكه**، كعلمنا بافتقار العالَم إلى صانع حكيمٍ، وفائدة بعثة الرُّسُل في هذا النوع تأكيدُ دليلِ العقل بدليل النقل، وقطعُ عذرِ المكلَّفِ من كلّ الوجوه، كما قال تعالى: ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ ﴾[النساء: 165]،

[1] ينظر: بغية الطالب في شرح عقيدة ابن الحاجب، (ص/149)؛ مختصر تظن الفرائد ومبدي الفوائد في شرح محصل المقاصد، (861/2) وما بعدها.

[2] ينظر: بغية الطالب في شرح عقيدة ابن الحاجب، (ص/270 ـ 271).

والعلماء ذكروا وجوها ثلاثة في تلك الحجَّة:

أحدها: أن يقولوا: إنَّ الله تعالى كلَّفنا بالعبادة، فقد كان يجب أنْ يُبَيِّنَ لنا العبادةَ التي يريد مِنَّا ما هي؟، وكم هي؟، وكيف هي؟، فبعثَ اللهُ الرُّسُلَ لقطع هذا العذر.

وثانيها: أن يقولوا: إنّك ركَّبْتَنَا تركيب سَهْوٍ وغفلةٍ، وسلَّطْتَ علينا الهوى والشهوة، فَهَلَّا أمَرْتَنَا بِمَنْ إذا سَهَوْنَا نبَّهنا، وإذا اتَّبَعْنَا الهوى مَنَعَنَا، ولكنَّك تَرَكْتَنَا مع أنفسنا، كان ذلك إغراءً لَنَا على تلك القبائح.

وثالثها: أن يقولوا: هَبْ أنَّا بعقولنا عَلِمْنَا حُسْنَ الإيمانِ وقبحَ الكُفْر، ولكنْ نَعْلَمُ بعقولنا أنَّ مَنْ فَعَلَ الحسنَ أَثَبْتَهُ، ومن فعل القبيحَ عَذَّبْتَهُ، سِيَمَا ونحنُ نعلمُ أنَّ في فعل القبيح لذَّةً ليس لكَ فيها مضرَّةً، فلا جَرَمَ لو لم يكن مجرَّدَ العلمِ بالحسن والقبيح داعيا ولا وازعًا، أمّا بعد البعثة فتنقطع هذه المعذرة.

وأمَّا **الثاني، وهو: فائدة البعثة فيما لا يستقلُّ العقل بإدراكه**، فقد ذكروا فيه وجوها:

أحدها: أنَّ المكلَّف يبقى خائفا، لو اشتغل بالطاعة كان متصرّفا في ملك تعالى بغير إذنِه، ولو لم يشتغل بها فربما عُذِّبَ، وعند البعثة يزول الخوف.

وثانيها: أنَّه ليس كلُّ ما كان الشيء قبيحا عندنا، كان قبيحا في نفسه، فإنَّ النظرَ في وجه العجوز قبيحٌ، وإلى وجه الحسناء حسنٌ، وليس كذلك في الشرع.

وثالثها: أنَّ الأشياء المخلوقة في الأرض، منها غذاءٌ ودواءٌ، ومنها سمٌّ، والتجربة لا تفي بمعرفتها إلا بعد طولٍ، ومع ذلك ففيها خطرٌ في الأكثر؛ وفي البعثة معرفة طبائعها ومنافعها ومفاسدها، من غير ضرر ولا خطر.

ورابعها: أنَّ الإنسانَ بطبعه يريد الاجتماعَ، وهو مظنَّة التنازع، والتنازع يفضي إلى التقاتل، فالبعثة بشريعةٍ مُرَغِّبَةٌ في الطاعات، وزاجرةٌ من السيِّئَات، يرتفع بها ذلك.

وخامسها: أنَّ العقول متفاوتة، والكمالُ نادرٌ، والأسرار الإلهية عزيزة، فيستفاد بعد بعثة الأنبياء وإنزال الكتب عليهم ما لا يستفاد قبل ذلك.

وسادسها: الهداية إلى الصناعات النافعة، قال تعالى في داوود عليه السلام: ﴿ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ ﴾ [الأنبياء: 80].

وسابعها: معرفة ما يحتاج إليه من المعيشة من عِلْمَيِ الأخلاق والسياسة، ولهذا قال تعالى لنبينا عليه السلام: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ ﴾ [الأعراف: 199].

وثامنها: أنَّ كلَّ جنسٍ من الأجناس تحتَهُ أنواعٌ، وفي تلك الأنواع واحدٌ هو أكْمَلُهَا؛ وكذا الأنواع بالنسبة إلى الأصناف، والأصناف بالنسبة إلى الأشخاص، والأشخاص بالنسبة إلى الأعضاء،

والأعضاء رَئِيسُهَا القلبُ؛ فالإنسانُ لابدَّ له من رئيسٍ، والرئيس إمَّا أن يكون حكمهُ على الظاهر فقط، وهو السلطانُ، أو على الباطن، وهو العالِمُ، أو عليهما جميعا، وهو النبيُّ؛ فهذه بعض فوائد البعثة، والله أعلم.

المبحث الخامس: جانب عملي تطبيقي لدور علماء الكلام في عملية التفعيل الحضاري المعاصر ـ التنظير للحكم الراشد ـ:

لعب علماء الكلام دورًا بازرًا في التأصيل للحكم الراشد، فبيَّنوا مفهومه وقعَّدوا أسُسَهُ، ومهَّدوا الطريق لمن يسلكه، وأطلقوا عليه عبارات متنوِّعة، مثل: (الإمامة) و(الحكم) و(الخلافة الراشدة) و(الملك العضود)، و(السلطنة)، وغيرها.

وأكثر ما أطلقوه هو لفظ (الخلافة الراشدة)[1]، وبدأ ظهور ملامحه بفترة حكم أبي بكر الصديق، ومن جاء بعده كعمر بن الخطاب وعثمان وعلي ـ رضي الله عنهم ـ جميعا.

وهذا التراث الإسلامي لا يتعارض تمامًا مع ما يُقْصَدُ به في عصرنا الحالي من استخدام كلّ الطُّرُق والأساليب الدالَّة على العدل والرُّشْد، وتوسيع طُرُقِ الشورى، وغيرها من الأسُس الهامَّة في الحكم، ولذلك يقال: إنَّ هذا المصطلح (الحكم الراشد) فرنسيُّ النَّشْأة، وإن كنتُ أخالف ذلك تماما[2]، حيث يزعمون أنَّه مرتبط بوظيفة الحكومة الفرنسية في القرن الثالث عشر الميلادي،حيث أصبح متداولًا ضمن المنظومة القانونية سنة (1978م)، ثم تَمَّ تعميمه على نطاق عالمي لِيُدَلِّلَ على الرَّشَادَة في الإدارة وطُرُقِ التسيير[3].

---

[1] أصل إطلاقه هو ما يرويه أحمد في مسنده، (355/30)، برقم: (18406)، عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ، قَالَ: كُنَّا قُعُودًا فِي الْمَسْجِدِ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَكَانَ بَشِيرٌ رَجُلًا يَكُفُّ حَدِيثَهُ، فَجَاءَ أَبُو ثَعْلَبَةَ الْخُشَنِيُّ، فَقَالَ: يَا بَشِيرُ بْنَ سَعْدٍ أَتَحْفَظُ حَدِيثَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فِي الْأُمَرَاءِ؟، فَقَالَ حُذَيْفَةُ: أَنَا أَحْفَظُ خُطْبَتَهُ، فَجَلَسَ أَبُو ثَعْلَبَةَ، فَقَالَ حُذَيْفَةُ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ـ ﷺ: « **تَكُونُ النُّبُوَّةُ فِيكُمْ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ تَكُونَ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ خِلَافَةٌ عَلَى مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ، فَتَكُونُ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ تَكُونَ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ مُلْكًا عَاضًّا، فَيَكُونُ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَكُونَ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ مُلْكًا جَبْرِيَّةً، فَتَكُونُ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ تَكُونَ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ خِلَافَةً عَلَى مِنْهَاجِ نُبُوَّةٍ** »، ثُمَّ سَكَتَ.

[2] الحقيقة خلاف ما يزعمونه، فالعبارة عربية سليمة فصيحة، وردتا في القرآن الكريم والسنة المطهرة، واستعملها المسلمون عبر قرون، وإنما تلقفها الغربيون من تراثنا الإسلامي ونسبوها لأنفسهم، إظهارا لتفوّقهم العلمي والفكري والثقافي، ليس إلّا، بدليل أنّ كثيرا من القوانين الفرنسية مستمدة من فقهنا الإسلامي الذي ترجموه في أواخر القرن التاسع والعشر والبدايات القرن العشرين؛ وهذا ما قرره الباحث سعد صدارة في رسالته للدكتوراه الموسومة بـ: التنمية الإنسانية في القرآن الكريم: دراسة موضوعية، (ص/200).

[3] ينظر: الحكم الرشيد والكفاءة الاقتصادية، دراسة قدّمها الباحث: زايري بلقاسم، للمؤتمر الدولي حول الأداء المتميز للمنظمات والحكومات، جامعة ورقلة، ببلدنا الجزائر، مارس (2005م)؛ التنمية الإنسانية في القرآن الكريم، للباحث سعد صدارة، (ص/200).

وهو عند إطلاق الباحثين المعاصرين يقصد به: «مجموعة القواعد الطموحة الموجهة لإعانة ومساعدة المسيرين للالتزام بالتسيير الشفَّاف في إطار هدف المساءلة على أساس قاعدة واضحة المعالم وغير قابلة للانتقاد أحيانا، كون كلّ الأطراف الفاعلة عبر النشاطات المتعددة تساهم في ذلك، أيْ: في مجال التسيير »[1].

وهذا التعريف وإن كانت نشأته اقتصادية، فإنّه يأخذ في طيَّاتِه أبعادًا إدراية وسياسية، وتطور ليشمل جميع جوانب الحكم الأخرى.

ويمكنني بسط هذه القضية الهامَّة من خلال العناصر الآتية، وهي:

أوَّلًا ـ اهتمام علماء الكلام بمسألة الخلافة الراشدة (الحكم الراشد):

اهتمّ علماء الكلام كثيرا بمسألة الإمامة، أو ما يُعْرَفُ في القرون الماضية بـ(الخلافة الراشدة)، فقد عَقَدُوا لها أبوابًا عديدةً في مصنَّفَاتِهم الكلامية، بهدف بَلْوَرَة تصوُّرٍ كاملٍ حول أفضل النُّظُم التي تُحَقِّقُ للأفراد سُبُلَ العيش الكريم، وتستجيبُ لِاحْتِيَاجَاتِهم الدائمة التي تُحَسِّسُهُم بكرامتهم ورُقِيِّهم، وبِدَوْرِهِم في بِنَاءِ وإِعْمَارِ بُلْدَانِهم، وفتح الآفاق لإطلاق إبداعاتهم وابتكاراتهم، وضمان مستقبلهم ومستقبل أجيالهم، وهذا المعنى اسْتَوْحَوْهُ مِن نصوص القرآن الكريم والسُّنَّة النبوية المطهَّرة وتَجَارِبِ الصحابة ومَن جاء بعدهم في التاريخ الإسلامي، بما له وما عليه.

وهذه المسألة، وإن كانت عند أغلب علماء الإسلام من المتكلمين، من فروع الدين، لا من أصوله، إلَّا أنَّها من المسائل الهامَّة في ديننا، كونُها تتعلَّقُ بمصير الأمَّة واستقرارها، وقد أجمع المسلمون على امتناع خُلُوّ الوقت من خليفةٍ يَسُوسُ الأمَّة سياسةً حكيمةً، ولذلك يورد لها الإمام أبو العباس المنجور الفاسي ما قاله أبو بكر الصديق عند توليته أمور الأمة بقوله: « ولَابُدَّ لهذا الأمر مِن قائمٍ يقومُ به، فانظروا أو هاتوا رأيكم ـ رحمكم الله ـ فأتاه الناسُ مِن كلّ جانبٍ: صَدَقْتَ يا أبَا بكر »؛ ثم يقول: ولم يَزَل الناسُ على ذلك في كلّ زمانٍ، إلى زماننا هذا، من إقامة الأئمة، إما بإجماعٍ من الأمَّة، أو بِعَهْدِ وَصِيَّةٍ، أو بِهِمَا »[2].

وعلى هذا الأساس يُعَرِّفُها عُلَمَاؤُنَا المتكلِّمون بقولهم: « (الإمامة): عبارة عن رياسةٍ في الدين والدنيا عامَّة، لشخصٍ واحدٍ غير نبيٍّ »[3].

---

[1] ينظر: التنمية البشرية للحكم الراشد، مقال للباحثين: الأخضر عزي، وغالم جلطي، نشر بمجلة عالم الغد، تصدر عن المركز الأكاديمي للدراسات الإعلامية وتواصل الثقافات، فيينا، النمسا، ع. (4)، (2005م)، الرابط: (Freemediawatch.orghttp://www).

[2] ينظر: مختصر نظم الفرائد ومبدي الفوائد في شرح محصل المقاصد، (1273/2).

[3] بغية الطالب في شرح عقيدة ابن الحاجب، لـ: أبي العباس أحمد بن زكري التلمساني الجزائري، (ت.900 هـ)، دراسة وتحقيق: عبد الرزاق دحمون، دار المعرفة الدولية للنشر والتوزيع، الحراش-الجزائر العاصمة، طبعة خاصة (2011م)، (ص/385)؛ مختصر نظم الفرائد ومبدي الفوائد في شرح محصل المقاصد، (1273/2).

و(الإمام) أو (الحاكم)، كما يطلق عليه في وقتنا الحالي، ينبغي أن يكون ذَا قدوةٍ، مِن أجل ذلك عرَّفه علماء الكلام بقولهم: « وأمَّا (الإمامُ) في الشرع: فهو الشخصُ الذي يُقْتَدَى بِهِ في دينه ودنياه »[1].

ثانيا ـ بيان الأسس الحقيقة لنظام الحكم الراشد:

الأسُسُ التي يوصف بها الحكم العادل عند المسلمين كثيرة ومتنوعة، وسأركز على أبرزها، مما ذكره علماء الكلام في مصنفاتهم، مراعاة لمجال بحثي وحدود صفحاته، ومنها:

1 ـ اعتقادهم الراسخ أنّ شريعة الله تعالى هي المصدر الأول للتشريع، فهي الأحكم والأصلح والأرشد، وإليها أشار ربنا عز وجلّ في القرآن الكريم، بقوله: ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [المائدة: 50]؛ وأشاروا في هذا السياق إلى أنّ الشريعة الإسلامية مهيمنة على الشرائع الأخرى، سماوية كانت أو وضعية، وإليها الإشارة في قوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [المائدة: 48]، ولم يغفلوا عن توضيح مسألة طاعة أولياء الأمور، وأنها تكون في طاعة الله تعالى، لقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾ ﴾ [النساء: 59].

2 ـ سواسية الحكام والمحكومين في أحكام الله تعالى: وهذا المعنى يقرره الباحث منير البياتي بقوله: « ثمَّ إنَّ الشريعة جعلت الحكام والمحكومين أمام الشرع سواء، وأمام القضاء سواء، وأمام الحدود سواء، وليس للحُكَّام في هذا المجال مزايا خاصَّة، بل عليهم عِبْءٌ كبيرٌ في تنفيذ أحكام الله تعالى في كلّ أمر من أمور الحياة، وليس لهم الحكم وفق الأهواء والمصالح الشخصية أو الحزبية أو العرفية أو الإقليمية أو غيرها »[2].

---

[1] بغية الطالب في شرح عقيدة ابن الحاجب، لـ: أبي العباس أحمد بن زكري التلمساني الجزائري، (ص/385).

[2] الدولة القانونية والنظام السياسي الإسلامي، لـ: منير البياتي، (ص/506)، نقلا عن الإسلام والدستور، لـ: توفيق بن عبد العزيز السديري، نشر وكالة المطبوعات والبحث العلمي، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، (1425 ه)؛ وينظر أيضا: التنمية الإنسانية في القرآن الكريم، لـ: سعد صدارة، (ص/204).

3 ـ الأخذ بأسباب القوة والتفوُّق لتكون كلمة الله هي العليا: وهي من الأفكار الهامة التي نادى إليها كلُّ رواد الإصلاح في عالمنا العربي والإسلامية، على اختلاف مناهجهم وتوجّهاتهم وقناعتهم، لأنها محلّ إجماع بينهم، وفي ذلك يقول عبد القادر عودة: « ...، إذ ليس في طبيعة الإسلام إلَّا ما يدعو إلى التقدُّم والتفوق، فهو يوجب على المسلم أن يأخذ بأسباب القوة والعزة والتفوق والسيادة، ويوجب على المسلم المساواة التامَّة والأخوة المتعاونة والعدالة المطلقة، وهو يدعو الجماعة إلى التحرُّر من الخوف والجهل والضعف والفقر، وينكر الأثرة والاستعلاء والاحتكار والاستغلال والإساءة والظلم »[1].

4 ـ المشاركة في إعداد وصياغة الدساتير النابعة من أحكام ديننا وشريعتنا الإسلامية: من هذا التفعيل الحضاري المعاصر، استنادا لإتقان علم الكلام، اهتمام أهل الاختصاص، خصوصا المتشبّعين به فَهْمًا وتطبيقًا: مشاركتهم في إعداد وصياغة الدساتير النابعة من أحكام ديننا وشريعتنا الإسلامية، فالدساتير ينبغي أن تتضمَّن نوعا من الديباجة اللغوية والاعتقادية التي تتناول ثوابت الأمّة وأخلاقها وأعرافها وتقاليدها ورموز الدولة وطبيعتها وشكل نظامها السياسي، بحيث لا تتضارب مؤسساتها الرئيسية المتعلقة بالجانب التشريعي والتنفيذي والقضائي، ومن ثمَّ تحافظ على حقوق الأفراد وحرّياتهم، وتحدِّد واجباتهم في الوقت نفسه، وتراعي التطوّر الحاصل على كلّ المستويات، مع التزام المرحلية الزمانية، بهدف الاستفادة من مختلف الخبرات المعاصرة والاجتهادات المتنوعة من مختلف المذاهب والتوجُّهات والقناعات الفكرية.

5 ـ مواكبة الحاكم لتطوَّرات عصره وما تحتاجه رعيته: تحدَّث علماء الكلام عن الشروط المعتبرة في الحاكم، وتحديدا (الإمامة الكبرى) أو الخليفة (رئيس الدولة) بمصطلح عصرنا، فذكروا منها البلوغ والعقل والحرية والذكورية وسلامة الحواس والعلم والحكمة والورع، وقد فصّلها الإمام الآمدي بما فيه كفاية[2].

---

[1] الإسلام وأوضاعنا القانونية، عبد القادر عودة، ط.2، (1967م)، (دون اسم الدار)، مصر، (ص/141 ـ 143).

[2] أشار الآمدي ـ رحمه الله ـ إلى أنَّ شروط الحاكم تنقسم إلى شروط متّفق عليها، ومشروط مختلف فيها؛ فأما المتّفق عليها فهي ثمانية: 1 ـ أن يكون مجتهدًا في الأحكام الشرعية، بحيث يستقلّ بالفتوى في النوازل، وإثبات أحكام الوقائع نصًّا واستنباطًا؛ 2 ـ أن يكون بصيرا بأمور الحرب، وترتيب الجيوش، وحفظ الثغور، قادرا على ملابسة ذلك بنفسه؛ 3 ـ أن يكون من قوة البأس وعظم المراس، ما لا تَهُولُهُ إقامة الحدود وضرب الرقاب، وإنصاف المظلومين من الظالمين؛ 4 ـ أن يكون عاقلا، مسلما، عدلا، ثقة، ورعا في الظاهر، حتى يوثق بأخباره، وبما يصدر عنه من أفعاله، ولأنّه أحفظ لمال بيت المال، وصرفه في مصارفه؛ 5 ـ أن يكون بالغا، لأنّه أكمل عقلا، وهيبة، وتجربة، ونظرًا؛ 6 ـ أن يكون ذكرًا، لأنَّ الظاهر من الأنوثة النقص؛ 7 ـ أن يكون حرًّا، لأنَّ الحرية مظنَّة فراغ البال عن الاشتغال بخدمة الغير، واستغراق الزمان بها، ولأنَّ العبودية منظة استحقار الناس له، والأنفة من الدخول تحت حكمه؛ 8 ـ أن يكون مُطاعَ الأمرِ، نافذ الحكم في محلِّ ولايته، مقتدرا على زجر من خرجَ عن طاعته؛ وأما المختلف فيها فلا تهمُّنا، لعدم موافقتها لما نعيشه في عصرنا؛ ينظر: أبكار الأفكار في أصول الدين، لـ: سيف الدين الآمدي، (191/5 ـ 233)؛ مختصر نظم الفرائد ومبدي الفوائد في شرح محصل المقاصد، (1274/2).

وهذه المواصفات كلُّها من حُسْنِ التدبير ووضع الأمور في نصابها ومواقعها، وبها تتميّز حنكة الحاكم المسلم في بلاد المسلمين وحس إدارته وعلوّ مهاراته، ليكون أهلًا لمنصبه الهامّ في حكم الناس ورعاية مصالحهم، في دينهم ودنياهم.

ولذلك قرَّروا أنَّ حاكم المسلمين ينبغي أن يكون فاهمًا لِمَا يَعِيشُهُ، قادرًا على تحليل المسائل، ذكيًّا، مُدْرِكًا لما يحتاجه شعْبُه ورعَيَّتُه، قائمًا على حلِّ مشكلاته ومواجهة الأزمات والتحديات مَهْمَا صَعُبَتْ، مُرجِّحًا للمصالح على المفاسد، مُحْسِنًا لاستثمار ثروات بلاده، وعَوْدَة خيرَاتِها على الجميع، مُستشْرِفًا لقضايا المستقبل، والإعداد لها بحكمةٍ ومنهجٍ وبرنامجٍ، مع إدارة حكيمة تحوطه بمشورتها وحسن تدبيرها.

وهذه الشروط قد أخذت بها أغلب الدساتير في عصرنا، في البلاد العربية والإسلامية، وهذا إنْ دلَّ على شيءٍ، فإنما يدلُّ على متابعة علماء الكلام لها الشأن الهام في الأمَّة، فكيف يقال أنهم لم يقدِّموا شيئا للأمة؟!، اللَّهُمَّ إنَّ هذا بهتانٌ عظيمٌ.

وهذا الذي قرَّرُوه منذ القديم، هو ما يدعو إليه خيرة الباحثين في عصرنا الحالي، على شاكلة ما كتبه الباحث أكرم ضياء العمري في كتابه الذي سماه: (الخلافة الراشدة)[1]، حيث تناول طرق الإدارة والقضاء والاقتصاد والعمران والزارعة وغيرها.

يقول سعد صدارة: « إنَّ ثقافة ووعي الحاكم وبصيرته بميادين الحياة، عن علمٍ وبصيرة ودراية، تشريفٌ حقيقيٌّ للدولة، داخليًّا وخارجيًّا، لأنَّه سيتواصل مع قادة العالَم، وسيحاضر ربَّما في جامعات، وبين يدي أساتذة علمٍ دَوْلِيّينَ، فيكون من الضروريّ أنْ يُشَرِّفَ بلَدَه، ويقدِّم رؤيته، ويعرِّفَ بحضارته وهُوِيَّتَه، ويدافع بفكرٍ عميق ونضجٍ سياسي مكين عن مختلف القضايا العادلة، ومنها قضايا أمَّتِه »[2].

6 ـ الاستعانة بالمستشارين وذوي الخبرة والاختصاصات الهامة: « من الضروري أن يجعل الحاكم الراشد من حوله أهل العلم والرأي والتجربة، يعينونه في تسيير شؤون الحكم، إذ ليس شرطًا أنْ يكون هو عالِمًا بكلِّ شيءٍ، أو قادرًا على حَسْمِ كلِّ أمرٍ، بَلْ يحتاجُ إلى هؤلاء، وفي مختلف التخصُّصات والميادين، للاستشارة الدائمة، واستخلاص خير الآراء وأفضل السُّبُل لرعاية المصالح، ودَرْءِ المفاسد، تماشيًا مع أساس الشورى التي تَعْصِمُهُ من الطغيان ساعة إعجابه بحسن رأيه »[3].

---

[1] طبع الكتاب بمكتبة العبيكان، بالمدينة المنورة، بالمملكة العربية السعودية، (1414 ه).

[2] التنمية الإنسانية في القرآن الكريم، لـ: سعد صدارة، (ص/220).

[3] المصدر نفسه والصفحة.

وبعبارة أخرى: إنَّ الحاكمَ الراشدَ إذا توفَّرَت فيه تلك المواصفاتُ، وكذا مَنْ يَحُوطُهُ في حكمه من الوزراء والعلماء وذوي الاختصاصات الهامَّة، الذين تَشْرُفُ بهم دولة المسلمين، يكون ذلك دَعْمًا حقيقيًّا للتقدُّمِ والرُّقِيِّ الحضاريّ؛ وهذا المعنى يقرره الباحث سعد صدارة بقوله: « ولا شكَّ أنَّ مجتمعًا يشرف على نهضته علماء في مختلف ميادين التنمية الوطنية سَيَشُقُّ طريقُه نحو التقدُّم والازدهار، وسيمكِّن من الاستفادة من طاقاته ومَنْتُوجِهِ الذي لَنْ يُثَمَّنْ أو يُعْتَبَر أو يُجَسَّد إلَّا عن طريق مَن يُقَدِّرُونَه ويعرفون قيمته وكيفيات استثماره »[1].

7 ـ **العدل في الحكم:** تعتبر مسألة العدل في الحكم من أهمّ ما شغل علماء الكلام في الأزمنة الماضية، ولا يزال إلى يومنا هذا؛ فهو أساس الملك، وتركيزهم هذا مبنيٌّ على اعتقادهم أنَّ العدل أمرٌ إلهيٌّ موجَّه إلى جميع الخلق، إنسهم وجنّهم، لتضمُّنِه مقاصد ديننا الحنيف، وإليه الإشارة في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٩٠ ﴾ [النحل: 90]، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ٥٨ ﴾ [النساء: 58]، وقول النبي ـ ﷺ تبشيرًا بإكرام الله تعالى للإمام العادل: « **سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ، يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ...** »[2]، وذكر منه إمام عادل.

وتفعيل هذه الفكرة في وقتنا المعاصر، تحدَّث عنها الباحث الدكتور سعد صدراة بشيءٍ من التفصيل، بعبارات جيّدةٍ مفيدةٍ، حيث وضَّح أهميَّةَ العدل في كلّ شيءٍ، من ذلك: قوله: « العدل تمكينُ الرَّجُلِ المناسب في المكان المناسب، خدمةً للصالِح العامّ، وحفظًا لأمانات البلاد والعباد، وحسن تسيير لما أوكل إليهم من مسؤوليات ومُهِمَّاتٍ، وهي أمانات أيضا، وهذا من شأنه أيضا أن ينهي حالة تزوير الانتخابات وتُنَقَّذُ اختيارات الشعوب، وتُمَكَّنُ من اختيار رؤسائها ومراقبتهم ومحاسبتهم وعزلهم إن اقتضى الأمر، وتصبح للمؤسسات قُوَّتُهَا وللرُّؤَسَاء والمسؤولين شَرْعِيَّتُهُم التي تُمَكِّنُهُم مِن تنفيذ برامجهم ومشاريعهم التي اختارهم على أساسها الشعب، لأنَّ منصب الرئيس أمانةٌ بِيَدِ الشعب، يُعطِيها لِمَنْ يَسْتَأْهِلُهَا »[3].

---

[1] المصدر نفسه، (ص/219).

[2] أخرجه البخاري في صحيحه ـ كتاب الأذان، باب: من جلس في المسجد ينتظر الصلاة وفضل المساجد، (133/1)، برقم: (660)، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ؛ ولفظه عنده بتمامه: « **سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ، يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: الإِمَامُ العَادِلُ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ رَبِّهِ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي المَسَاجِدِ، وَرَجُلاَنِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ طَلَبَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ، فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ، أَخْفَى حَتَّى لاَ تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ** »؛ ومسلم في صحيحه ـ كتاب الزكاة، باب: فضل إخفاء الصدقة، (715/2)، برقم: (1031).

[3] التنمية الإنسانية في القرآن الكريم، سعد صدارة، (ص/207).

8 ـ استقلالية القضاء وحسن اختيار القضاة، وإبعادهم عن الضغوط: ينبغي جَعْلُ القضاءِ مؤسَّسةً وسلطةً مستقلةً، لا دخل لأيّ سلطةٍ في أحكامها، لِيَنْتَشِرَ العدلُ، ويسودَ الأمْنُ، ويتساوَى الجميعُ أمامَ قراراتها، حُكَّامًا ومحكومين، ومن شأن هذا التفعيل ـ كما يقوله الباحث سعد صدارة ـ: « أنْ يُلْجِمَ الجميعَ، خصوصًا من لهم سلطةُ منصبٍ أو مالٍ، أو غيرها، حتى لا يتعدَّى على الغير »[1]؛ وبهذا الأمر يَتِمُّ تقليصُ شوكة المفسدين، ويسود العدل[2]، الذي هو أعرف المعروف، كما يُعَبِّرُ عنه بعضُهُم[3].

9 ـ المساواة بين أفراد المجتمع: ينبغي المساواة بين أفراد المجتمع بِغَضِّ النَّظر عن نَسَبِهِم أو منصبهم أو جهتهم أو مالهم أو لونهم أو دينهم، إذْ: « تُمَثِّلُ المساواةُ نقطةَ ارتكازٍ هامَّةٍ في التنمية الإنسانية واتِّصاف الحكم بالرشادة، لأنَّه ينظر إلى أبناء الوطن الواحد نظرةً إيجابيةً واحدةً، تُعْطِيهِم الحقَّ كاملًا، وتَأْخُذُ منهم الواجبَ كاملًا، وتستثمر في طاقاتهم وقدراتهم لتحريك مشاريع التنمية فيها، والظلم قاتل للطاقات، مقصيٌّ لها، وبالتالي معطل لقوَّة الأمَّة الكاملة »[4].

10 ـ توسيع دائرة صلاحيات أهل العقد والعقد: تحدَّث علماؤنا في النقص الحاصل في الحاكم، وأنَّه يَجِبُ عَزْلُهُ حينها، بقرارٍ من أهل الحلِّ والعقد، فقد أوْرَدَ المنجورُ نَصًّا للإمام المازري، جاء فيه قوله: « والنقص البدني المانع من النظر الكلّيّ الميؤوس من زواله، كالجنون، يوجب خَلْعَهُ، وإنْ أوجبَ تقصير نظره، كالعمى والخَرَص والصمم، ففي وجوب خلعه بذلك؛ ثالثها: إنْ لم يمكنه الكَتْبُ والقراءة، ويُمْنَع ابتداءً تَوْلِيَتُه اتِّفاقًا؛ ولو ذهبت رِجْلَاهُ ويَدَاهُ، فقال العلماء: يُخلع ابتداءً؛ ولَوْ ذهبت إحدى يديه ورِجْلَيْهِ، ففي وجوب خلعه خلافٌ »[5].

فمثل هذه الأوصاف التي اشترطها علماؤنا تستلزم أن يكون حاكم المسلمين سليم الأعضاء، مهيبًا، وهو ما يسهّل عليه أداء وظائفه كاملة.

---

[1] التنمية الإنسانية في القرآن الكريم، سعد صدارة، (ص/207).

[2] يقول الإمام تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية الحراني، (ت.728 هـ) في كتابه: الحسبة، حقَّقه وعلَّق عليه: علي بن نايف الشحود، ط.2، في (1425 هـ / 2004م)، عدد الأجزاء: (1)، (ص/178): « العدلُ نظامُ كلّ شيءٍ، فإذا أُقِيمَ أمرُ الدنيا بعدلٍ قَامَتْ، وإنْ لم يَكُنْ لصاحبها في الآخرة مِن خَلَاقٍ، ومتى لم تَقُمْ بعَدْلٍ لم تَقُمْ، وإن كان لصاحبها من الإيمان ما يجزى به في الآخرة ».

[3] ينظر: الفقه السياسي الإسلامي، لـ: فريد عبد الخالق، دار الشروق، ط.1، (1988م)، القاهرة- مصر، (ص/195)؛ التنمية الإنسانية في القرآن الكريم، لـ: سعد صدارة، (ص/209).

[4] التنمية الإنسانية في القرآن الكريم، سعد صدارة، (ص/206).

[5] المعلم بفوائد مسلم، لـ: أبي عبد الله محمد بن عليّ بن عمر المازري، دار الغرب الإسلامي، تونس، الطبعة الثانية، (3/35 ـ 36)؛ مختصر نظم الفرائد ومبدي الفوائد في شرح محصل المقاصد، (2/1277)؛ وهذه مسألةٌ مشابهةٌ لما حدث لنا بالجزائر في الفترة الأخيرة، أو ما يعرف بالحراك ضد العهدة الخامسة، وهذه مسألةٌ مشابهةٌ لما حدث لنا بالجزائر في الفترة الأخيرة، أو ما يعرف بالحراك ضد العهدة الخامسة.

وقد قرَّر علماء الكلام أنّه ليس بالضرورة أن يكون الحاكم أفضل أهل زمانه، بل قد يكون المساوي أو المفضول أعرف بمصالح الأمَّة ومفاسدها، وأقدر على القيام بواجبها، خصوصا إذا كان نصب الإمام المفضول أدْفَعُ للشَّرِّ، وأبعد عن إثارة الفتنة[1].

وفائدة إقامة مثل هذا الإمام (الحاكم) تعتبر من الأمر بالمعروف في الأمة والنهي عن المنكر فيها، خصوصا إذا انتهى إلى نصب القتال وشهر السلاح، فيربط حينها بوليّ الأمر، حذرا من الفتنة، كما ذكر غير واحد من علمائنا الأوائل[2].

وهذا الاهتمام بالحاكم لم يغفلهم عن الاهتمام ببيان الشروط المعتبرة في أهل الحلّ والعقد، المؤَهَّلُونَ لاختياره، فاشترطوا فيهم الذكورة والعدالة والعلم الذي يُتَوَصَّلُ به إلى معرفة من يستحقّ الإمامةَ والرَّأْيُ المؤدي إلى اختيار من هو للإمامة أصلح وبتدبير المصالح أقْوَمُ[3].

11 ـ الحرص على المصالح الكبرى للأمة ودفع المفاسد: هذا الأمر من أهَمّ مظاهر التفعيل الحضاري المعاصر، فهو يدخل في باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأنه فرضُ كفايةٍ على الحاكم فمن دونه، فإذا قام به في كلِّ صَقْعٍ مَنْ فيه غَنَاءٌ، سَقَطَ الإثمُ والحَرَجُ عن الباقين؛ وبَيَّنَ علماؤنا أنَّ التغيير في كلِّ محلٍّ بحسب ما يليق به، ويُظَنُّ به زوال المنكر في لينٍ ورِفْقٍ، في تغييره على الجاهل وذِي العِزَّةِ الظالِم المُتَّقَى شَرُّهُ، فإنَّه أدعى للقبول، ويغلّظ على غيرهما؛ كما أشاروا إلى أنَّ التغيير باليد: أنْ يكسر آلات الباطل، ويريق الخمر، وينزع المغصوب من الغاصب، ونحو ذلك؛ فإنْ خافَ من التغيير باليد مفسدة أشدَّ، غَيَّرَ بالقول، فيعظ ويُخوِّف، ويندب إلى الخير؛ فإنْ خافَ أيضا من التغيير بالقول مفسدة أشدّ، غَيَّرَ بالقلب، وهذا أضعف مراتب التغيير[4]، استنادا إلى قول النبي ـ ﷺ ـ: « **مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ** »[5].

---

[1] ينظر: مختصر نظم الفرائد ومبدي الفوائد في شرح محصل المقاصد، (1278/2).

[2] أيْ: السلطان أو الحاكم أو الملك أو الأمير؛ ينظر: الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد، لـ: أبي المعالي الجويني، (ص/148)؛ شرح المقاصد، لـ: سعد الدين التفتازاني، (174/5).

[3] ينظر: بغية الطالب في شرح عقيدة ابن الحاجب، (ص/389)؛ مختصر نظم الفرائد ومبدي الفوائد في شرح محصل المقاصد، (1286/2).

[4] ينظر: مختصر نظم الفرائد ومبدي الفوائد في شرح محصل المقاصد، (1280/2 ـ 1281).

[5] أخرجه مسلم في: صحيحه ـ كتاب الإيمان، باب: ، (69/1)، برقم: (49).، عن أبي سعيد الخدري ـ ﷺ ـ.

ويمكننا ملاحظة وجوب حرص الحاكم على المصالح الكبرى للأمة، ودفع المفاسد المحيطة بها، من خلال ما قرَّرَه علماؤنا، أمثال الإمام أحمد ابن زكري التلمساني الجزائري، وهي عشرة أشياء[1]:

أحدها: حفظ الدين على أصوله المستقرَّة، وما أجمع عليه الأئمة، فإنْ ظهرَ مبتدعٌ أقْمَعَهُ، ليكونَ الدِّينُ محروسًا.

الثاني: تنفيذ الأحكام وقطع الخصام، حتى لا يقوى ظالمٌ، ولا يضعف مظلومٌ.

الثالث: حماية البيت والذَّبِّ عن الحريم، وعن جميع ما يُتَّقَى، ليَتَصَرَّفَ الناسُ في معَايِشِهِم.

الرابع: إقامةُ الحدود، لِتُصَانَ مَحارِمُ اللهِ عن الانتهاك.

الخامس: تحصينُ الثُّغُور بالقوَّة، حتى لا يَطْفَرَ العدوُّ بِبَيْضَة الإسلام.

السادس: جهادُ مَن عَانَدَ بعد الدعوة، حتى يسلم، أو يدخل تحت الذِّمَّة.

السابع: جبايةُ الفَيْءِ، والصدقةُ على ما أوجب الشرع من ذلك، مِن غير سرفٍ ولا عنفٍ.

الثامن: تقريرُ العطاء وما يُسْتَحَقُّ في بَيْتِ المال، مِن غير تبذيرٍ ولا تقصيرٍ، ودَفْعُهُ في وقْتِه، ولا تقديم فيه ولا تأخير.

التاسع: استنابةُ الأمَنَاءِ على الأموال، وتقليدِ النُّصَحَاءِ فيما يُفَوِّضُهُ إليهم من الأعمال، لتكون الأعمال بالنصحاء مضبوطة، والأموال بالأمناء محفوظة.

العاشر: أنْ يُباشِرَ بنفسه الأمور المهمَّة، ويتصفَّح الأحوالَ، لِتَتِمَّ بذلك سياسةُ الأمَّة، ولا يعوِّل على التفويض مطلقًا، فقد يَخُونُ الأمينُ، ويغشُّ النَّاصِح.

ونلاحظ بهذا أنَّ علماء الكلام نَظَّرُوا منذُ قرونٍ لمثلِ ما يَقَعُ في عصرنا[2]، وتبقى التفاصيل التي تَتَجَدَّدُ بالوقائع والأحداث، يرجع التفصيل فيها لأهل الاختصاص، كلٌّ في مجاله، والله أعلم.

---

[1] ينظر: بغية الطالب في شرح عقيدة ابن الحاجب، (ص/389 ـ 390).

[2] هذا التفعيل نلاحظه من خلال بعض القرارات لسيد رئيس الجمهورية، ومن ينوب عنه، خاصة ما يتعلق بقرار الحجر الصحي منذ الوهلة الأولى لظهوره، حفاظا على أرواح الناس، وتغليظ العقوبة على مخالفيه، وإنشاء اللجنة الوطنية المتعلقة بمتابعة تطور هذا الفيروس (كورونا)، لخطورته المتفاقمة؛ وهكذا الأمر فيما يتعلق بعقوبة حرق الغابات، المفضية لإتلاف مقدَّرات الشعب، وتشديد الزجر والردع في التهاون في الحفاظ عليها، فهو من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: ومثل هذه القرارات وغيرها، التي يتَّخِذُها الحاكمُ المسلمُ الرَّاشِدُ في عصرنا هي مِن صُلْبِ ما قرَّره علماؤنا المتقدِّمون منهم والمتأخرون، حين تحدَّثوا عمَّا يلزمه من أمور الرعية.

وهذه المباشرة المطلوبة من الحاكم في وقتنا، ينبغي أن تستوعب الحقوق الأساسية للإنسان ومطالبه في العيش الكريم، بحيث تشمل محور الأخلاق والقِيَم، كالكرامة والحرية والمساواة والأمن؛ ومحور حاجاته الأساسية، كالتعليم والمسكن، والغذاء والصحة ومراعاة حاجات العجزة والفقراء والشباب؛ وكذا محور الخدمات، كتوفير الماء الشروب والغاز والكهرباء النقل، وسائر أنواع الإدارات؛ فهذه العناصر تمثّل الحدّ البسيط الذي يحفظ كرامة الإنسان ويلبي حاجاته في وقتنا الحالي[1].

وتبعا لهذا، فإنَّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر له فوائد عديدة على تماسك المجتمع، من أجل ذلك يركّز عليه المختصون، وإليه أشار الإمام أبو حامد الغزالي بقوله: « فإنَّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو القطب الأعظم في الدين، وهو المهِمُّ الذي ابتعثَ اللهُ له النبيين أجمعين، ولَوْ طَوَى بساطه، وأهمل علمه وعمله، لتعطَّلَت النبوَّة، واضمحلَّت الديانة، وعمَّت الفترة، وفَشَت الضلالة، وشاعت الجهالة، واستشرى الفساد، واتَّسَع الخَرْقُ، وخَرِبَت البلاد، وهَلَكَ العبادُ، ولم يشعروا بالهلاك إلَّا يوم التناد، وقد كان الذي خِفْنَا أنْ يكون، فإنَّا لله وإنا إليه راجعون، إذ قد اِنْدَرَسَ من هذا القطب عمَلُه وعلْمُه، وانمحقَ بالكُلِّيَّة حقِيقَتُه ورَسْمُه، فاستولت على القلوب مداهنةُ الخَلْق، وانْمَحَت عنها مراقبةُ الخالق، واسترسل الناس في اتباع الهوى والشهوات اسْتِرْسَال البهائم، وعزَّ على بساط الأرض مؤمنٌ صادقٌ لا تأخذه في الله لومةَ لائِمٍ، فمَنْ سَعَى في تَلَافِي هذه الفترة، وسَدَّ هذه الثُّلْمَة، إمَّا متكَفِّلًا بعملها أو متقَلِّدًا لتنفيذها، مجددا لهذه السُّنَّة الدَّاثِرَة، ناهِضًا بأعبائها، ومتشَمِّرًا في إحيائها، كان مستأثرًا مِن بين الخَلْق بإحياء سُنَّةٍ أفْضَى الزمانُ إلى إماتتها، ومُسْتَبِدًّا بقُرْبَةٍ تتَضَاءَلُ درجاتُ القُرْبِ دُونَ ذَرْوَتِها »[2].

وهذا المعنى الهامّ يذكره أخي الفاضل الأستاذ الدكتور الباحث سعد صدارة، في عصرنا الحالي، ويقرّرُه بقوله: « يَقَعُ تفعيلُ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ضمن منظومة الحكم الراشد من طرف المسلمين جميعا، حكَّامًا ومحكومين، وإنَّ هذا الأساس لَهَامٌّ وخطيرٌ في الوقت نفسه، لما يتعلَّق من تفعيله فوائد جليلة، ومن غيابه مضارّ كبيرة »[3].

---

[1] التنمية الإنسانية في القرآن الكريم، لـ: سعد صدارة، (ص/215).

[2] إحياء علوم الدين، (306/2).

[3] التنمية الإنسانية في القرآن الكريم، لـ: سعد صدارة، (ص/238).

وفي هذا السياق نفسه، يركّز أهل الاختصاص على ضرورة مراقبة سير عمل المسؤولين، حيث يقول: « ومن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: مراقبة المسؤولين وولاة الأمور، وفْقَ طُرُقٍ وآلياتٍ يُقِرُّها الدستور، ليبقى الحاكمُ خادمًا للشعب، وراعيًا لمصالحه، ووفيًّا للعهد الذي قطعه، وللبيعة التي أُعْطِيَتْ له مِن طَرَفِ الرَّعيَّة، ولِيَعْلَم أنَّ حكْمَه ليس مطلقًا، وليس فوق الرقابة والمراجعة والمحاسبة »[1].

وعلى هذا، وجب على المجتمع أن يراقب نفسه ذاتيا، ويحافظ على قيمه وفضائله، ويحرسها، ويشجع من يلتزمها ويصونها.

هذا بعض ما يسَّرَ اللهُ تعالى كتابَتَهُ، ركَّزْتُ فيه على الأهمِّ، وتَغَافَلْتُ عن غيره من المسائل الأخرى المتعلِّقة به، مراعاةً لحدود البحث، وأرجو من الله تعالى أنْ يُيَسِّرَ لِي توسيعه مستقبلًا، إن كان في العمر بقية، بتوفيقه وحسن عونه سبحانه عز وجلَّ، وإليك أيها القارئ الكريم، نتائجه وتوصياته المدلِّلَة على خاتمته.

الخاتمة:

الحمد لله على توفيقه لي كتابة هذا البحث، وإتمامه على هذا الوجه الدقيق، وفي هذا المقام يمكنني حصر أهمَّ نتائجه المتوَصَّل إليها في العنصرين الأساسيين: أوَّلًا ـ نتائج البحث وفوائده؛ ثانيا ـ بيان توصياته، وبسطهما يكون في النقاط الآتية:

أوَّلًا ـ نتائج البحث وفوائده:

1 ـ إنَّ التفعيل الحضاري المنشود هو ما يصبو إليه العقلاء في وقتنا هذا، لأنَّ أبوابه تبدأ بالولوج إلى ميدان البحث العلمي المنظَّم، القائم على المفكِّرين من أهل العلم، الذين يستخدمون عقولهم ويُجنِّدُونَ إمكاناتهم الفكرية للبحث والدراسة[2].

2 ـ أهمية علم الكلام وضرورة الاعتماد على ما قدمه المتكلِّمون من جهود هائلة في سبيل نشر الإسلام والردّ على المشوهين له في كلِّ زمان ومكانٍ.

3 ـ قيمة النصوص الكلامية القديمة والحديثة دليل واضحٌ وجليٌّ على عظمة ما قدمه علماؤنا الأجلاء، فهي بحقّ تُنَظِّرُ لعصرنا هذا، وغيره مما سيأتي، كونُها نابعةٌ عن علمٍ وتجربةٍ دقيقةٍ.

---

[1] المصدر نفسه، (ص/240).

[2] لمزيد من المعرفة والتفصيل في هذه المسألة، ينظر: المسلمون في مفترق الطرق، لـ: محمود حمدي زقزوق، دار القدس العربي، القاهرة-مصر، ط.1، (1437 هـ-2016م)، (ص/28).

4 ـ النصوص المنقولة عن بعض علمائنا في هذا البحث تُظْهِرُ العلاقةَ الوثيقةَ بين (علم الكلام) وبين (عملية التفعيل الحضاري المنشودة في عصرنا)، على الرغم من الصعوبات الناجمة في هذا الصدَّد، لِعَدَمِ فَهْمِ أغراضِ المتكلِّمين، وعدمِ مُوَاكَبَة تطوَّرات العصر المتسارعة.

5 ـ توضيح علماء الكلام من خلال بعض نصوصهم المنقولة في البحث، للمهامّ المنوطة بالحاكم المسلم، مِثْلَمَا بَيَّنَهُ الإمامُ ابن زكري التلمساني في (بغية الطالب في شرح عقيدة ابن الحاجب) هو ما ينسجم فعلًا ويتوافق تمامًا مع ما يدعو إليه أهل الاختصاص في إدارة شؤون الدولة في عصرنا، من ضرورة تفعيل الحاكم للمشاركة الشعبية في تنمية الوطن ومشاريع الدولة وتسيير مؤسساتها عن طريق إشراك قواها المقتدرة والأمينة الممثّلة عنها في الحكومة والبرلمان (مجلس الأمة) والمجالس المحلية والولائية، وفي كثير من القطاعات الحسَّاسة فيها، لأنَّ ذلك كفيلٌ بإشراك أفراد الشعب الأمناء بعيدًا عن المحسوبية.

6 ـ من الناحية العملية التطبيقية اهتمَّ علماءُ الكلام بشكل دقيقٍ بمنصب رئيس الدولة عند المسلمين، وبيان الصلاحيات الممنوحة له، لما له من أهمِّيَّة في استقرار المجتمعات وتطوُّرِها، فأشاروا إلى أهمِّ المواصافات التي ينبغي أنْ يتحلَّى بها، من علمٍ وحكمةٍ وصدقٍ وأمانةٍ وصحَّةِ جسدٍ وقوةِ شخصيةٍ، وغيرها؛ وكل هذا التمسوه مما حكاه القرآن الكريم والنبيُّ في سُنَّتِه المطهَّرة وتجارب التاريخ الإسلامي وما نَظَّرَ له علماء الكلام؛ وقوَّة هذا المنصب تُتِيحُ للحاكم المسلم إدارةَ مؤسَّسَات الدولة وصناعة القرار بها، مما يُسَاهِمُ في عملية التنمية المنشودة في كلِّ قطاعٍ من قطاعات الدولة، على الرغم من اختلاف التسميات الواردة في تاريخنا الإسلامي، مثل: (خليفة رسول الله)، و(خليفة المسلمين)، (السلطان)، (الأمير)، (الملك)، (رئيس الدولة)، (الحاكم).

7 ـ إنَّ حديث علماء الكلام عن أسس الحكم الراشد، ومنه حُسْنُ اختيارِ مَن يَصْلُح لِحُكْمِ المسلمين، وما يتفرَّع عن ذلك من المسائل الهامَّة، إنَّما هو في حقيقته نابع من مبدأ الشورى الوارد في قوله تعالى: ﴿**وَأَمْرُهُمْ شُورى بَيْنَهُمْ**﴾ [الشورى: 38]، ولذلك كان رسول الله ﷺ كلما هَمَّ بفعل شيء هامّ يجمع حوله خيرة أصحابه، ويقول لهم: « **أَشِيرُوا عَلَيَّ أَيُّهَا النَّاسُ...** »، فهو آلية آمنة للوصول إلى الرؤى والخيارات والأشخاص التي تفرزها في وقتنا المعاصر العملية الانتخابية الحرَّة والشفافة؛ وتطبيقات هذا المبدأ تكون حسب تطوّر حياة المسلمين زمانيًّا ومكانيًّا؛ ومن ثمّ لا يستبدّ أحد برأيه في أمْرٍ من الأمور المشتركة بينهم، وهذا أحد أهمِّ السُّبُل في توحيد كلمة المسلمين على الحقِّ والخير، تحقيقا للمصالح ودرءا للمفاسد؛ وهذا التشاور، خصوصا في القضايا الحساسة، من شأنه أنْ يحقِّق الانسجام والتكامل والتعاون في حماية الدولة وتماسكها واستقرارها ورقيِّها وازدهارها، وعلى تنفيذ مشاريع التنمية بها، ويزيد في تقوية إرادة الحاكم وعزيمته على إنفاذ ما التزم به وما انتخب من أجله، فيكون الشعب عونا للحاكم لأداء مهامِّه.

ثانيا ـ بيان توصيات البحث المقترحة:

وأما ما يتعلَّق بتوصيات البحث، فإنّني أقترح ما يلي:

1 ـ ضرورة تكثيف الدورات التدريبية على مستوى المؤسسات الرسمية التابعة للدولة، مثل الجامعات ومراكز البحث المختصة لتكوين الإطارات المختصة التي تقوم بتسيير شؤونها وتنفيذ مشاريعها، لأنّها المؤهلة رسميا بعملية التفعيل الحضاري المنشود.

2 ـ الاهتمام بطبع ونشر الأعمال العلمية الأكاديمية في هذا الشأن، لما لها مِن دَوْرٍ حاسمٍ بتسريع عملية التفعيل الحضاري المنشود، والوصول بركب الدول المتطورة ماديا ومعنويا.

3 ـ العمل على تنظيم الملتقيات الوطنية والدولية وإقامة الندوات العلمية والأيام الدراسية كلما سنحت الفرصة، لما لها من زيادة حقيقية في عملية الدفع الحضاري إلى الأمام، فهي تساعد على التلاقح العلمي والفكري بين العلماء والمختصِّين.

وكتبه العبد الضعيف الراجي رحمة ربِّه ومغفرة مولاه: **الأستاذ الدكتور: عبد الرزاق بن عيسى بن محمد بن الحاج يحيى بن أحمد بن عبد الرحمن دحمون العاصمي الجزائري**، صبيحة يوم الأحد (03 جمادى الثانية 1443 هـ)، الموافق لـ: يوم الخميس (06 جانفي 2022م)، بعاصمة بلدنا الجزائر المحروسة بحفظ الله ورعايته، ولطفه وكرمه.

اللهمَّ اجْعَلْ ثَوَابَ هذا العملَ العِلْمِيَّ وأجْرَهُ مَوْصُولًا لِي، ولِوَالِدَيَّ، ولآبائي وأجدادي، وإخواتي وأخواتي، وسائر أفراد عائلتي، وانفعني به في الدَّارَيْنِ؛ والحمد لله الذي بنعمته تتمُّ الصالحات.

تمّ بحمد وتوفيقه، وحسن عونه وكرمه.

.

فهرس المصادر والمراجع :

المؤلفات:

1 ـ **(أثر الإيمان في تحصين الأمة الإسلامية ضد الأفكار الهدامة)**، لـ: عبد الله بن عبد الرحمن الجربوع، عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، ط.1، (1423هـ/ 2003م)، 2ج

2 ـ **(إسلامنا)**، لـ: السيد سابق، دار الفكر، بيروت ـ لبنان، د.ط، (1398 هـ ـ 1978م)، 2ج.

3 ـ **(البرهان في أصول الفقه)**، لـ: إمام الحرمين أبي المعالي، ركن الدين، عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن محمد الجويني، (478ت. هـ)، تحقيق: صلاح بن محمد بن عويضة، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، ط.1، (1418 هـ ـ 1997م)، 2ج.

4 ـ **(التخلف والتنمية في فكر مالك بن نبي)**، لـ: طاهر سعود، دار الهادي، بيروت ـ لبنان، ط.1، (1427 هـ ـ 2006م)

5 ـ **(التعريفات)**، لـ: علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني (ت. 816هـ)، تحقيق: ضبطه وصححه جماعة من العلماء بإشراف الناشر،: دار الكتب العلمية بيروت ـ لبنان، ط.1، (1403هـ/1983م)، 1ج

6 ـ **(التفكير دراسة نفسية تفسيرية)**، لـ: كاظم الجابري، ومحمد كاهر العامري، دار الشروق، عمان ـ الأردن، ط.1، (2012م).

7 ـ **(التفكير فريضة إسلامية)**، لـ: عباس محمود العقاد، تحقيق: إبراهيم الصابر، دار التقوى، القاهرة ـ مصر، د.ط. (1437 هـ ـ 2016م).

8 ـ **(التوقيف على مهمات التعاريف)**، لـ: زين الدين محمد المدعو بعبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين الحدادي ثم المناوي القاهري، (ت.1031هـ)، عالم الكتب، عبد الخالق ثروت، القاهرة، مصر، ط.1، (1410هـ ـ 1990م)، 1ج.

9 ـ **(الحريات من القرآن الكريم)**، لـ: محمد علي الصلابي، دار ابن حزم، بيروت ـ لبنان، ط.1، (1422 هـ ـ 2013م)

10 ـ **(الحكم العطائية والمناجاة الإلهية)**، لـ: تاج الدين أحمد بن محمد بن عبد الكريم بن عطاء الله السكندري، (ت.709 هـ)، صححها وعلّق عليها: حسن السماحي سويدان، ط.1، (1419 هـ ـ 1998م).

11 ـ **(الدين والحضارة الإنسانية)**، لـ: محمد البهي، مكتبة الشركة الجزائرية مرازقة بوداود وشركاؤهما، باب عزون-الجزائر العاصمة، (د. ت. ط).

12 ـ **(الذخيرة)**، لـ: أبي العباس شهاب الدين أحمد بن إدريس القرافي، تحقيق: محمد حجّي، دار الغرب الإسلامي، بيروت ـ لبنان، ط.1، (1994م).

13 ـ **(السيرة النبوية)**، لـ: أبي محمد، جمال الدين، عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري، (ت.213 هـ)، تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، القاهرة، بمصر، ط.2، (1375هـ/ 1955م)، 2ج

14 ـ **(العين)**، لـ: أبي عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري، (ت.170 هـ)، تحقيق: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، د.ط.، (د. ت. ن)، 8ج

15 ـ **(الفكر الديني وقضايا العصر)**، لـ: محمود حمدي زقزوق، دار القدس العربي، القاهرة ـ مصر، ط.1، (1437هـ ـ 2016م).

16 ـ **(المحصول من علم الأصول)**، لـ: فخر الدين، أبي عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي، (ت.606هـ)، دراسة وتحقيق: د. طه جابر فياض العلواني، مؤسسة الرسالة، ط.3، (1418 هـ ـ 1997م).

17 ـ **(المسلم في عالم الاقتصاد)**، لـ: مالك بن نبي، دار الشروق، بيروت، لبنان، ط. (1394 هـ ـ 1974م).

18 ـ **(المسند)**، لـ: أبي عبد الله أحمد بن بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني، (ت.241 هـ)، تحقيق: شعيب الأرنؤوط ـ عادل مرشد، وآخرون، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، ط.1، (1421 هـ ـ 2001م).

19 ـ **(المصباح المنير في غريب الشرح الكبير)**، لـ: أبي العباس أحمد بن محمد بن علي الفيومي الحموي، المتوفى نحو سنة (770هـ)، المكتبة العلمية ـ بيروت، (د. ت. ط).

20 ـ **(المعجم الفلسفي)**، لـ: جميل صليبا، دار الكتاب اللبناني، بيروت ـ لبنان، ط. (1982م)، 2ج

21 ـ **(المفردات في غريب القرآن)**، لـ: أبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، (ت.502 ه)، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية، دمشق، بيروت ـ لبنان، ط.1، (1412 ه)، 1ج

22 ـ **(المقدمة)**، لـ: ابن خلدون، تحقيق: محمد الشامي، دار الكتاب الحديث، درارية، الجزائر العاصمة، ط. (2016م).

23 ـ **(الموافقات في أصول الشريعة)**، لـ: أبي إسحاق الشاطبي، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، ط.1، (1425 هـ ـ 2004م)

24 ـ **(المواقف في علم الكلام)**، لـ: عضد عبد الرحمن بن أحمد الإيجي، دار عالم الكتب، بيروت ـ لبنان، مكتبة المتنبي القاهرة، مكتبة سعد الدين بدمشق، (د. ت. ط).

25 ـ **(أنوار البروق في أنواع الفروق)**، لـ: لـ: أبي العباس شهاب الدين أحمد بن إدريس بن عبد الرحمن القرافي المالكي، (ت.684 ه)، عالم الكتب، (د.ت، ط.)، 4ج

26 ـ **(بغية الطالب في شرح عقيدة ابن الحاجب)**، لـ: أبي العباس أحمد ابن زكري التلمساني الجزائري، (ت.900 ه)، دراسة وتحقيق: عبد الرزاق دحمون، دار المعرفة الدولية للنشر والتوزيع بالحراش، الجزائر، طبعة خاصة، (2011م).

27 ـ **(تاج العروس من جواهر القاموس)**، لـ: أبي الفيض مرتضى محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني الزَّبيدي، (ت.1205 ه)، تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الهداية، دت.

28 ـ **(تفسير القرآن العظيم)**، لـ: أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي، (ت. 774 ه)، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون، بيروت ـ لبنان، ط.1، (1419 ه).

29 ـ **(تهذيب اللغة)**، لـ: أبي منصور محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، (ت.370 ه)، تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، بيروت ـ لبنان، ط.1، (2001م)، 8ج

30 ـ **(حاضر العالم الإسلامي وقضاياه المعاصرة)**، لـ: علي جريشه، ومحمود محمد سالم، مطاب الدجوي، القاهرة ـ عابدين، مصر، (د.ت.ط)، 1ج

31 ـ **(حرية الرأي في الإسلام)**، لـ: مصطفى عبد الواحد، دار السلام، القاهرة ـ مصر، ط.1، (1431 هـ ـ 2013م).

32 ـ **(دعوة إلى السُّنَّة في تطبيق السُّنَّة منهجًا وأسلوبًا)**، لـ: عبد الله بن ضيف الله الرحيلي، مكتبة الملك فهد الوطنية ـ المملكة العربية السعودية، د.ت.ن، 1ج

33 ـ **(شروط النهضة)**، لـ: مالك بن نبي، ترجمة: عمر كامل مسقاوي، وعبد الصبور شاهين، دار الفكر، الجزائر، ط.3، (1969م)

34 ـ **(شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم)**، لـ: نشوان بن سعيد الحميرى اليمني، (ت.573 ه)، تحقيق: د حسين بن عبد الله العمري، مطهر بن علي الإرياني، د. يوسف محمد عبد الله، دار الفكر المعاصر، بيروت ـ لبنان؛ دار الفكر، دمشق ـ سورية، ط.1، (1420 هـ ـ 1999م)، 11مج

35 ـ **(صحيح البخاري)** = (الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه)، لـ: أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي)، ط.1، (1422ه)، 9ج

36 ـ **(صحيح مسلم)** = (المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ)، لـ: أبي الحسن مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، (ت.261 ه)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت ـ لبنان، د.ت، 5ج

37 ـ **(عناصر القوة في الإسلام)**، لـ: السيد سابق، دار الكتاب العربي، بيروت ـ لبنان، ط.2، (1393 هـ ـ 1973م)

38 ـ **(فلسفة الحضارة)**، لـ: ألبرت أشفيتسر، تحقيق: د. زكي نجيب محمود، ترجمة: د. عبد الرحمن البدوي، مطبعة مصر، القاهرة، مصر، ط. (1963م)

39 ـ (في أصول الحوار وتجديد علم الكلام)، لـ: د. طه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء-المغرب، ط.3، (2007م).

40 ـ (كفاية طالب علم الكلام في شرح الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد)، مخطوط بـ: الخزانة العامة بالرباط، المغرب الأقصى.

41 ـ (لسان العرب)، لـ: أبي الفضل، جمال الدين محمد بن مكرم بن علي بن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى، (ت.711 ه)، دار صادر، بيروت ـ لبنان، ط.3، (1414ه)، 15ج

42 ـ (لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية لشرح الدرة المضية في عقد الفرقة المرضية)، لـ: شمس الدين، أبي العون محمد بن أحمد بن سالم السفاريني الحنبلي، (ت.1188ه)، مؤسسة الخافقين ومكتبتها، دمشق ـ سوريا، ط.2، (1402هـ ـ 1982م)، 2ج

43 ـ (محصل المقاصد مما تعبر به العقائد)، لـ: أبي العباس أحمد بن زكري التلمساني الجزائري، (ت.900 ه)، دراسة وتحقيق: عبد الرزاق دحمون، دار المعرفة الدولية للنشر والتوزيع، الحراش-الجزائر العاصمة، طبعة خاصة، (2011م).

44 ـ (مختصر نظم الفرائد ومبدي الفوائد في شرح محصل المقاصد)، لابن زكري التلمساني الجزائري، (ت: 900 ه)، تأليف الشيخ أبي العباس أحمد بن عليّ المنجور الفاسي المغربي، (ت.995 ه)، دراسة وتحقيق: عبد الرزاق دحمون، دار ابن حزم، بيروت ـ لبنان، ط.1، (1435 هـ ـ 2014م).

45 ـ (معالم في الطريق)، لـ: سيد قطب، دار الشروق، بيروت ـ لبنان، د.ط.، (د. ت.ط).

46 ـ (معجم اللغة العربية المعاصرة)، لـ: أحمد مختار عبد الحميد عمر، (ت.1424ه) بمساعدة فريق عمل، عالم الكتب، ط.1، (1429هـ ـ 2008م)، 4ج.

47 ـ (معيار العلم في فن المنطق)، لـ: أبي حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي، (ت.505 ه)، تحقيق: د. سليمان دنيا، دار المعارف، مصر، (1961م)، 1ج

48 ـ (مفاتيح الغيب)، لـ: أبي عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري، (ت.606 ه)، دار إحياء التراث العربي، بيروت ـ لبنان، ط.3، (1420).

49 ـ (مقاييس اللغة)، لـ: أبي الحسين أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، (ت.395 ه)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، (1399هـ ـ 1979م)، 6ج

50 ـ (من مقولات الفكر الإسلامي، رؤية جادة لموضوعات هامة)، لـ: محمود عكام، فصّلت للدراسات والترجمة والنشر، حلب، سوريا، ط.1، (1422 هـ ـ 2002م).

51 ـ (ميلاد مجتمع)، لـ: مالك بن نبي، ترجمة: عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق-سوريا، ط. (1394 هـ ـ 1974م).

المؤتمرات:

(الحكم الرشيد والكفاءة الاقتصادية)، دراسة قدّمها الباحث: زايري بلقاسم، للمؤتمر الدولي حول الأداء المتميز للمنظمات والحكومات، جامعة ورقلة، ببلدنا الجزائر، مارس (2005م).

الأطروحات والرسائل الجامعية:

(التنمية الإنسانية في القرآن الكريم: دراسة موضوعية)، أطروحة دكتوراه لنيل شهادة دكتوراه علوم في العلوم الإسلامية، إعداد: سعد صدارة، كلية العلوم الإسلامية، بالخروبة، جامعة الجزائر ـ 1 ـ بن يوسف بن خدة، قسم العقائد والأديان، تخصص: عقيدة، السنة الجامعية (1437 هـ ـ 1438 ه) // (2015م ـ 2016م).

(التفكير وتنميته في ضوء القرآن الكريم)، لـ: عبد الوهاب محمود إبراهيم، بحث مقدم لنيل درجة الماجستير في العلوم الإسلامية، إشراف: د. خالد خليل علوان، أطروحة منشورة بـ: كلية الدراسات العليا في جامعة النجاح الوطنية، نابلس، فلسطين، (2009م).

(حرية التفكير في الإسلام وأثرها في البناء الحضاري المعاصر: القرن 19م ـ 20م)، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماستر في العلوم الإسلامية، تخصص: العقيدة، إعداد الطالبة: نفيسة حمودة، إشراف: أ. د/ عبد الرزاق دحمون، التاريخ: جوان (2018م)، الدفعة السابعة.

مقالات المجلات:

ـ (التنمية البشرية للحكم الراشد)، مقال للباحثين: الأخضر عزي، وغالم جلطي، نشر بمجلة عالم الغد، تصدر عن المركز الأكاديمي للدراسات الإعلامية وتواصل الثقافات، فيينا، النمسا، ع. (4)، (2005م)، الرابط: (http://www . Freemediawatch.org).